ثورة قاو الكبرى

ثورة قاو الكبرى

رواية

عمرو شعراوي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٣٠٢ /٢٠١٨

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 523 – 0

ثـورة قـاو الكبرى

روايـة

عمرو شعراوي

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شعراوي، عمرو

ثورة قاو الكبرى: رواية/ عمرو شعراوى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٠ ٥٢٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٣٣٠٢ / ٢٠١٨

فطيفُ خيالِ الظّلِّ يُهدي إليكَ في ... كَرَى اللّهوِ، ما عنهُ السَّتائرُ شُقّتِ
ترىَ صورةَ الأشياءِ تُجلي عليكَ من ... وراءِ حجابِ اللَّبسِ في كلِّ خِلعةِ
تجمَّعـت الأضـدادُ فيهـا لحكمـةٍ ... فأشكالهَا تبدُو على كُـل هيئةِ
صوامتُ تُبدي النطقَ وهيَ سواكنٌ ... تحرّكُ، تُهدي النّورَ، غيرَ ضَويَّةِ
وتَضْحَكُ إعجابًا، كَأجْذلِ فارحٍ؛ ... وتبكي انتحابًا، مثلَ ثَكلى حزينَةِ
وتندبُ إن أنّت على سلبِ نِعمةٍ ... وتطرَبُ إنْ غنَّتْ على طيب نغمةِ

عمر بن الفارض

حماد المشاعلي

ريح هوجاء دقت الأبواب وضربت النوافذ، تشبع الهواء بالغبار وكست طبقة رقيقة من الرمال أرضية الدار. دفع **حماد المشاعلي** الباب الخشبي العتيق وتقدم بخطوات بطيئة نحو العجوز الملتحفة بالسواد والجالسة بجوار فرن الخبيز. وقف أمام الست **بدرية** بطوله الفارع ومنكبيه العريضين ثم أخرج من جرابه كيسا قماشيا ملوثا بالدماء وسحب منه ذراعا مبتورة، حدق في فص "الزبرجد" الذي يزين خاتم **مساعد المواسي**، هز رأسه كأنه يومئ إلى الخاتم ثم ألقى بالذراع الدامي في حجرها. شمت رائحة الدم الجاف فرمشت عيناها المكحولتان، لكنها لم تتزحزح من مكانها ولم تحول بصرها بعيدا عن **حماد المشاعلي**. حدجته **بدرية** بنظرة غاضبة وهي تتابع

كل خطواته وتحركاته. عرفت أن رجاله محتشدون خارج الدار، تسمع أصواتهم وتشم رائحة الدخان المنبعث من مشاعلهم. وجودهم الثقيل يتسرب من بين شقوق الأبواب والنوافذ. لا تأبه بهم رغم علمها بأنهم سيقتلونها ثم يحرقون دارها بعد أن ينهبوها.

رجعت بذاكرتها إلى تلك السنوات البعيدة عندما انتقلت مع ابنها **مساعد** من "دير مواس" إلى "الشيخ جابر". فبعد موت زوجها تفاقمت خلافاتها مع أعمام **مساعد** علي ميراثه، فلجأت إلى أختها الكبرى **بثينة** المتزوجة من الحاج **عبد الكريم مشهور**. عقب وصولها بأيام قليلة أغار العربان على قرية "الشيخ جابر". ابنها **مساعد**، الذي كان في الرابعة عشر، انضم إلى **أحمد** و**مصطفى** ولدي الحاج **عبد الكريم** وغيرهما من **المشاهرة** في التصدي للمهاجمين وأبلوا بلاء حسنا حتى ردوهم على أعقابهم وطردوهم شر طرده. يومها نال **مساعد** إعجاب الشيخ **عبد الكريم** الذي أصر على بقائه مع أمه **بدرية** في "الشيخ جابر"، ومنحه ثلاثة أفدنة ليزرعها حتى يستقر به المقام بينهم.

أحست **بدرية** بثقل ذراع ابنها فوق فخذها، فذابت شوقا إليه وودت أن تقبل أصابعه الدامية. اكتسحها حنين جارف وتاقت إلى ملمس يده التي طالما ربتت ظهرها وذراعه التي كثيرا ما احتضنتها. كبتت انفعالاتها ولم تبد أي ردة فعل. استحضرت كل نبضة كانت تحسها في عروقه، واسترجعت الدفء المنبعث من أنامله الدقيقة الممسكة بثديها. تتفكر في صورة ابنها وهو ممتطي جواده الأبيض يوم زفافه فتتحسر عليه. أين ذهبوا جميعا؟

عبيد ابنها اختفوا وعماله هربوا عندما عرفوا بمقتله. هؤلاء الأنذال تركوها وحدها لتواجه **المشاعلي**. تتألم بسبب تنكرهم لأفضال ابنها ونسيانهم كل ما أغدقه عليهم من خيرات. تفتقد أختها **بثينة** التي توفيت منذ سنتين، لو كانت على قيد الحياة لما تخلت عنها في هذه اللحظة البائسة كما فعل أهل البلدة جميعهم.

عرفت **بدرية** منذ البداية أنها لن تنكس رأسها ولن تسمح للخوف بأن يتسرب إلى قلبها. ثبتت نظراتها على العملاق الذي يزمجر بصوت أجش، يلعن ابنها ويهزأ من خروج **مساعد المواسي** لمطاردته في أعماق الصحراء؟ لماذا تصور ابنها المغرور أنه يستطيع القضاء على **حماد المشاعلي**؟ تدير رأسها ببطء حتى تتمكن من متابعة حركاته. مهما أتي من أفعال همجية فلن يرجف لها جفن، وستثبت في مكانها أمام ذلك السفاح الذي سيصبح سيد الجبل الشرقي بلا منازع.

لقد انتظرت وصوله بعد أن جاءها خبر **مساعد**. انفض الناس من حولها واختفى كل من أز ابنها على الصعود إلى الجبل لمطاردة **المشاعلي**. جلست متشحة بالسواد بعد أن علقت في عنقها "اللبة" المشغولة من الجنيهات الذهبية المتشابكة والتي غطت صدرها من نحرها إلى سرتها. كانت تعلم أن هذا اليوم هو آخر أيام حياتها ولذلك قررت أن تفارق هذه الدنيا وهي في أبهى زينتها. سيقتلونها وسينهبون دارها قبل أن يحرقوها. بعد مقتل **مساعد** لن يجرؤ أحد في هذه البلدة أن يرفع رأسه أو أن يقف في وجه **المشاعلي**.

دار **المشـاعلي** حول نفسه وهو يتفرس الجدران الطينية المدهونة بالجير

الأبيض ثم رفع "شـومة" غليظة وهوى بها على كرسي خشـبي فهشـمه. حدجته السـت **بدريـة** بنظرة صارمة فزعق فيها وهددهـا بالقتل لكنها لم تأبه بما يفعله أو بذراعه المرفوعة. ولكي تنزع الخوف من قلبها ركزت كل انتباهها على بقع الدم التي لطخت جلبابه وزادته سوادا. تفحصت عمامته الملفوفة بإحكام فلاحظت بياضها الذي تناقض مع ملابسه الداكنة. صرخ فيها وسـبّها فلم يهتز لها رمش. سيقتلها لا محالة، تعرف ذلك، لكنه يريد الإمساك **بجساس** أولا. إحساسها بالرضا عما فعلته هذا الصباح زاد من صلابتهـا، يكفيها أنه لـن يتمكن من حفيدها بعد أن أرسـلته مع أمه إلى أخوالـه في "التناغـة". تتمنى في آخر لحظـات عمرها أن يعود حفيدها في يوم موعود لينتقم لأبيه.

الأفكار تتسارع في رأسها. لم تفهم ماذا ألم بابنها **مساعد**؟ ولم تستوعب لماذا قرر الخروج إلى الجبل لمطاردة **المشاعلي**؟ عندما علمت بعزمه على ذلك انقبض قلبها وحاولت إثناءه عن قراره. نصحته بعدم التوغل في أعماق الجبل الشرقي الذي يجهل دروبه ولا علم له بالأخطار التي تقبع بين أخاديده وفي قلب مغاراته، لكن **مساعد** استخف بتوجساتها وتجاهل تضرعاتها، ولم تثنه توسلاتها بل زادته تصميما على الخروج إلى الصحراء. ورغم كل المخاطر المحدقة به لم يكف عن التفاخر بقوة عبيده وغلمانه الذين تصدوا بنجاح المرة تلو الأخرى لهجمات العربان. ابنها، ذلك البائس ظن أنه سيقضي على **المشاعلي**، وسيخلص أرض الجزيرة و"الشيخ جابر" من شروره. ذلك المسكين لم يعد للأمر عدته ولم يحسن تقدير المجازف التي

تتربص بطريقه. أولاد أخواله من **المشاهرة** حاولوا إقناعه بعدم جدوى مطاردة **المشاعلي** في الصحاري والفيافي، خاصة أنهم نجحوا دوما من ردّ هجماته على أطراف قريتهم. لم ينصت إلى نصائحهم، وفضل الاستماع إلى هؤلاء الخاسرين الذين زينوا له مجدا لم ينله، ووعدوه بتأييد لم يفوا به. هؤلاء الجبناء تواروا ودخلوا جحورهم عندما أطبق **المشاعلي** على قريتهم، ولم يجرؤ أحد منهم على التعرض لذلك السفاح، ولم يتجاسر أحد على الخروج من بيته لملاقاته.

سمعت **بدرية** جلبة لا تعرف مصدرها، وتصاعدت أصداء خطوات رجال **المشاعلي** وهم يجوسون في أرجاء دارها الخاوية. بعد قليل تعالت ضوضاء غير مفهومة ووصلت إلى أذنيها أصوات تكسير أبواب بيتها وتهشيم خزائنه ودواليبه.

دنا **حماد المشاعلي** منها بخطوات ثابتة ثم خلع عمامته وألقى بها على الأرض فانسدل شعره الفاحم حتى وصل إلى منتصف ظهره. تفرس في الست **بدرية** ثم انحنى فوقها وقرب وجهه منها حتى شمت رائحة أنفاسه قبل أن تقبض أصابعه على "اللبة" التي تزين صدرها وتنتزعها بعنف. أحست بالدماء الدافئة تسيل فوق عنقها وسمعت للجنيهات الذهبية وشيشا لطالما كان محببا إلى نفسها.

***

غريب وعجيب

مد المراكبي السقالة التي اجتازها **محمود الغريب** ومساعده **شبل السباعي**. أثناء عبور النهر أحاطت بالمركب ستارة رقيقة من الضباب حجبت معالم الضفة المقابلة حتى رست على البر الشرقي. خلال هذه الفترة من السنة نقص منسوب النيل وتلطفت حرارة الجو. وصل **محمود الغريب**، في ذلك الصباح، إلى نهاية رحلته من "القاهرة" والتي دامت أربعة عشر يوما. عمدة "طما" نصحه بالذهاب أولا إلى "كفر العقال" لمقابلة عمدتها **عبد العال العقالي** الذي تطوع لمعاونة مساحي مصلحة الأشغال العمومية لكي ينهيا مهمتهما على أكمل وجه، لكن **محمود الغريب** فضل القيام بزيارة سريعة لمواقع القرى المنكوبة قبل أن يلتقي بالعمدة **عبد العال**. لعله خشي أن يخفي

عنه العمدة بعض الحقائق أو أن يوجه انتباهه إلى أشياء بعينها، فيحجب عنه الصورة الكاملة لما جرى.

أثناء رحلة "الدهبية" إلى "أسيوط"، أقام **محمود الغريب** مع مساعده **شبل السباعي** في إحدى الغرف التحتانية، بينما سكن الكبائن العلوية مجموعة من الرحالة الألمان والإنجليز. رغم ذلك بقت نصف الكبائن خالية بسبب انتشار الكوليرا في الصعيد مع عودة الحجاج من الحجاز، وتفشي الوباء أثناء أشهر الصيف. رغم مضي شهرين على انحصار المرض إلا أن التقارير الرسمية أشارت إلى الأعداد الكبيرة للضحايا في مديرية "جرجا" مما قلل من أعداد المسافرين إلى الصعيد. تلك المعلومة أثارت قلق **محمود الغريب** وجعلته يتردد في قبول المهمة، إلا أنه وافق في نهاية الأمر على القيام بها بسبب الترقية التي لوح بها رئيسه كمكافئة له.

ريح شمالية مواتية ملأت أشرعة "الدهبية" خلال أيام السفر فلم تتوقف إلا أثناء زيارات المسافرين الأوروبيين للمواقع الأثرية في "سقارة" و"دهشور" و"تونة الجبل" و"هرموبوليس". على ظهر "الدهبية" استمع **محمود** إلى العديد من القصص المتضاربة عما حدث للقرى المنكوبة التي تعرضت لحملة تأديب شرسة قادها **محمد فاضل باشا** و**إسماعيل باشا أبو جبل**. عندما وصلت "الدهبية" إلى "أسيوط"، ذهب **محمود الغريب** إلى مقر مدير المديرية وسلمه أوراقه. كان رئيس مصلحة الأشغال العمومية قد طلب، في كتابه إلى المسؤولين في "أسيوط"، توفير الحماية اللازمة للمساح ومساعده حتى يتمكنا من إتمام مهمتهما بنجاح. مدير المديرية أرسلهما إلى عمدة "طما"

ومعهما مكتوب رسمي يطلب فيه توفير الدعم اللازم لإتمام أعمال المساحة المطلوبة في "قاو الشرق" أو "قاو الكبرى" والقرى المحيطة بها.

عمدة "طما" لم يكف عن صب اللعنات على أهالي "قاو الشرق" و"الشيخ جابر" و"النواورة"، ولم يتوقف عن وصف الخراب الذي جلبوه على أنفسهم بعد أن ضللهم الشيخ **أحمد الطيب** وأخذهم في سكة الخراب المستعجل، وبالطبع لم يخل كلامه من الإشادة بشجاعة **فاضل باشا** وامتداح صرامته في مواجهة تلك الهوجة، ثم عرج به الحديث إلى الثناء على شجاعة العُمد والأعيان الذين وقفوا مع دولة الخديوي في مواجهة الرعاع من أهالي القرى الثائرة. اختص بمديحه **عبد العال العقالي** و**همام بك** من "ساحل سليم" و**عثمان الأحدب** من عزبة "أولاد سالم". وعندما تساءل **الغريب** عن أسباب ثورة أهالي القرى المحيطة بـ"قاو الكبرى" كرر العمدة عليه إحدى القصص التي سمعها من قبل على ظهر "الدهبية". حكاية هروب الأَمَة المسلمة من سيدها **عساف الحادي** بـ"عزبة الأقباط" والتجائها إلى الشيخ **أحمد الطيب** الذي آواها عنده ورفض ردها إلى مالكها. عندما اشتكى **عساف** لمدير المديرية، ألب **أحمد الطيب** الناس ضد الحكومة وحرضهم على حمل السلاح لمواجهة التجريدة التي أرسلها حاكمي مديريتي "جرجا" و"أسيوط" لتأديب الشيخ وإعادة الأَمَة لسيدها. قبل وصول القوة كان **أحمد الطيب** قد حض أعدادا كبيرة من الأهالي على التمرد ضد الحكومة بعد أن أقنع الفلاحين بأنه سيوزع الأراضي عليهم لكي يزرعوها على المشاع. تسائل **محمود الغريب** عن صحة ما سمعه عن الحكاية الثانية التي شاعت

عن تدخين **جريس الجاوي**، من "عزبة الأقباط"، علنا في رمضان أمام دكانه، وكيف استغل **أحمد الطيب** تلك الواقعة لإثارة الفتن بين المسلمين والنصارى، ثم انتهز الأحوال المضطربة لتأليب أهالي "الشيخ جابر" و"قاو الشرق" ضد الحكومة. أنكر العمدة علمه بتلك الواقعة مشيرا إلى أنها شائعة من ضمن عشرات الشائعات والروايات غير الحقيقية التي انتشرت بعد الغارة.

في بداية عمله أراد **محمود الغريب** أن يلقي نظرة سريعة على ما تبقى من قريتي "قاو الشرق" و"النواورة"، ودفعه الفضول إلى محاولة الإلمام بكل الوقائع والأحداث، مخالفا بذلك نصيحة رئيسه في مصلحة الأشغال العمومية الذي شدد على عدم التحدث إلى الأهالي عن الغارة، وأكد على ضرورة الاهتمام فقط برفع مواقع القرى المنكوبة وترسيم حدودها. أوصاه كذلك باستكمال أعمال المساحة بأسرع ما يمكنه حتى تبدأ الحكومة في إعادة تعمير تلك القرى في أقرب فرصة.

هبط **محمود الغريب** من فوق السقالة وتسلق ضفة النيل بين حشائش الحلفاء وأعواد الحجنة المنتشرة أعلى الجسر الترابي. تبعه **شبل السباعي** حاملا الحقيبة التي احتوت على أدوات المساحة، الشريط والسلسلة والأوتاد والدفاتر والأقلام. سار خلفهما خفيران أرسلهما عمدة "طما" لتوفير الحماية لهما. أشجار النخيل الباسقة ظهرت أمامهم وتناثرت بينها أبراج الحمام في المساحة الممتدة من جسر البحر حتى الجبل الشرقي. كان يمكن رؤية بعض الأبراج المهدمة، لكن عدد كبير منها كان ما زال قائما

ولم يمسسه ضرر. تقدم المساح نحو ثلاثة أبراج متجاورة فظهرت أمامه خرائب ما تبقى من "قاو الشرق". البيوت دكت دكا فلم يعد هناك جدار قائم أو سقف مرفوع. لم يتبق وسط الحطام إلا أجزاء مهشمة من عروق الخشب وسيقان نخيل الدوم المفلوقة وقطع من الأبواب والشبابيك المتكسرة، نظر حوله فرأى بقاياها المتفحمة والمتناثرة في الطرقات، وتصاعدت ذرات الرماد الناعم الذي كانت تذروه خطواتهم. **شبل السباعي** أخذ يكرر:

– لا حول ولا قوة إلا بالله!

تساءل **محمود الغريب**:

– ماذا جرى؟ وأين ذهب الناس؟

أحد الخفيرين أجابه:

– **فاضل باشا** لم يرحم أحدا. ضرب "النواورة" و"قاو الشرق" بالمدافع حتى هدم كل البيوت على رؤوس أهلها.

أضاف الخفير الثاني:

– بعد أن دخل البلدتين قبض على من نجا من الأهالي وقتل جميع الرجال ورحل النساء والأطفال إلى "دمياط". ثم سمح لجنوده بنهب ما يجدونه وسط الخرائب وأمرهم بحرق ما بقي قائما من المباني.

أشار **محمود الغريب** إلى أن بعض الأبراج بقت سليمة ولم تنهدم وأومأ إلى أسراب الحمام التي كانت تحلق حولها. رفع أحد الخفيرين منكبيه بلا مبالاة، بينما علل الآخر ذلك بأن الأبراج الموجودة في أطراف القرى هي التي نجت من القصف ولم تتهدم. تقدموا في طرقات "قاو الشرق"

التي امتلأت بالركام وأعاقت تحركاتهم قوالب الطوب المتناثرة وفلوق النخيل المحترقة. بين حين وآخر يظهر هيكل عظمي لجاموسة أو لحيوان غير معروف. لمح **محمود** جمجمة ثور انكسر أحد قرنيه وبيضت الشمس الحارقة عظام رأسه التي ظهرت فيها تجاويف منخاريه وعينيه. رائحة ثقيلة علقت في الهواء، مزيج من أبخرة الأخشاب المحترقة والرماد المتصاعد مع التراب ونتانة غير معروفة المصدر. غطى **محمود** أنفه بكم قميصه ومضى في طريقه متفحصا خرائب القرية بينما كانت همهمات الخفيرين تلاحقه.

التفت **محمود** إلى مساعده وأوضح له ضرورة البدء من الطرف الشرقي للبلدة حيث سيشرعان في دق الأوتاد اللازمة لتحديد زمام القرية من ناحية الشرق. نصحهما أحد الخفيرين بالانتهاء من عملهما قبل الظهر. كان هدفه من ذلك أن يتمكنوا جميعا من الوصول إلى "عزبة الأقباط" حيث سيقضون ليلتهم في منزل **عساف الحادي**، أو في دير "هرمينا السائح" المبني في سفح الجبل. الاحتمال الآخر كان الذهاب مباشرة إلى "كفر العقال"، إلا أن ذلك كان سيمنعهم من قضاء أي وقت في "قاو الشرق" وسيحرمهم من القيام بالقياسات الأولية التي أرادوا إتمامها.

عند الحدود الشرقية للبلدة جلس الخفيران في ظل نخلة عالية، بينما انشغل **شبل السباعي** بدق وتد حديدي لتعيين نقطة البداية. دار **الغريب** حول برج طيني للحمام، وتقدم نحو جرن من الأجران المخربة فسمع صوت دَرْبَكة آتية من وراء جدار مهدم. أسرع الخطى نحو مصدر الصوت بينما هبّ خلفه الخفيران وانطلقا وراءه. قفز **الغريب** فوق سور منخفض،

فرأى خيالا لشخص يعدو فوق الأنقاض حاملا جِوال من الخيش فوق كتفه. أسرع خلف الشبح الهارب مناديا إياه. لكنه سرعان ما اختفى بعد أن دار حول كومة من الأنقاض. عندما وصل **الغريب** إلى نفس الكومة تلفت حوله فلم ير أحدا. لحق به الخفيران وأطالا النظر إلى الخرائب المحيطة بهما ثم انطلق كل منهما في اتجاه مختلف.

اعتقد **الغريب** أنه رأى شبحا يجوس وسط تلك الخرائب أو ربما كان أحد المطاريد الذين أفلتوا من قبضة **فاضل باشا**. اضطربت أنفاسه لإحساسه بالخطر، وندم على عدم الذهاب أولا إلى **عبد العال العقالي** كما نصحه عمدة "طما". بعد قليل عاد الخفيران وحبات العرق تنضح من جبهتيهما والبلل يغطي جلبابيهما. خلع أحدهما طاقيته وأفصح عن ظنه بأن ما رآه **محمود الغريب** كان مجرد كلب ينبش وسط الأنقاض. أنكر **محمود** ذلك التفسير وأصر على أن ما رآه كان رجلا حقيقيا بشحمه ولحمه. هزّ الخفير الآخر رأسه وهو يؤكد عدم وجود بشر في هذه الناحية بعد أن قبض **فاضل باشا** على كل من نجا من الغارة وأرسلهم جميعا إلى "أسيوط"، ومن هناك تم نفيهم إلى "دمياط"، أما الجبل الشرقي فلقد تم تطهيره من جميع المطاريد وقطّاع الطرق.

زميله أضاف في فخر:

– لقد أمسك **فاضل باشا** بزعمائهم وأعدمهم على الخوازيق على مرأى من الجميع.

استدار **محمود الغريب** فلم يجد **شبل السباعي** حيث تركه وسط أدوات

القياس ومعدات المساحة. صاح في الخفيرين بأن مساعده قد اختفى. تبادلا نظرات مرتبكة قبل أن يقررا اقتفاء أثر "جرته". تراجع **محمود الغريب** بحذر نحو برج الحمام واستند بظهره إلى جداره متخذا وضع التأهب لصد الهجوم الذي قد يأتيه من أي اتجاه. مرت الدقائق متثاقلة، انشغل في أثنائها بأكثر الأفكار تشاؤما عن اختطاف **شبل السباعي**؟ وماذا سيفعل به مختطفوه؟ هل سيقتلونه أم سيعذبونه انتقاما للخراب الذي حل بهم؟ ربما سيخزوقونه ثم يحرقون جثمانه. مرت بخاطره أكثر الأفكار بشاعة ودموية. لقد عمل **شبل** معه لسنوات عديدة وكان أكثر مساعديه خبرة وأقدرهم على إنجاز المهام الصعبة. ولكي يوافق على مرافقته في هذه المهمة الخطرة أغراه بمنحه أجرا مضاعفا فقبل **شبل السباعي** عرضه بعد تردد. لم يتصور **محمود الغريب** أنه سيفقد مساعده هكذا فجأة وبلا مقدمات، واستبعد فكرة أن الخاطفين يريدون قتل **شبل السباعي**. فلا دخل له بمأساة قرى "قاو الكبرى"، ولقد أتى معه إلى هذه المنطقة لقضاء مهمة محددة يعودان بعدها إلى "القاهرة". فأي ذنب اقترف **شبل**؟ ذلك المسكين ليس له في الثور ولا في الطحين. فلماذا يتعرض لهذا الموقف الصعب؟

مضت ساعة كاملة ولم يظهر **شبل** أو الخفيران. ارتفعت الشمس في قبة السماء فشعر **محمود الغريب** بحرارة الجو، أحس بأشعتها تخترق كيانه وتستنفر حواسه التي زادت حدتها. لا يمكنه البقاء هكذا في هذا المكان دون أن يفعل شيئا للعثور على مساعده. كيف سيتصرف إذا لم يرجع الخفيران؟

فجأة رأى جسما يلمع على مسافة أربعمائة ياردة تقريبا. ركز بصره في الاتجاه الذي انبعث منه الضوء، لكنه لم ير شيئا. استرق السمع لكن لم يصله إلا صوت خشخشة سعف النخيل المتمايل بعد أن هبت عليه نسمة خريفية. كان متأكدا من أن الوميض، الذي برق فجأة ثم اختفى، صادر عن إنسان يتحرك بين الخرائب، فمن الواضح أنه ناتج عن انعكاس لأشعة الشمس من سطح معدني. عندما لمح البريق مرة أخرى تخلى عن حذره وانطلق في اتجاهه، لكنه ما لبث أن تعرقل في حبل مشدود بين نخلتين وتستره حشائش الحلفاء. سقط على وجهه لكنه استدار بسرعة وهو يتحسس أطرافه ثم تلفت حوله فرأى رجلا أربعينيا يرتدي جلبابا أزرق ويحمل فوق ظهره جِوال من الخيش، هبّ **محمود الغريب** واقفا وهو ينظر إلى الرجل بتوتر. بعد قليل ظهر شاب نحيف آتيا من اتجاه الوميض. تقدم الشاب نحوهما وهو يختال في مشيه. صرخ **محمود الغريب** مهددا:

– سيعود الخفيران فورا، ولن تفلتا منهما.

أجابه الرجل بهدوء:

– أرجوك لا تضطرب هكذا! هما لن يرجعا قبل أن نسمح لهما بالظهور.

تقدم الرجل نحو **الغريب** وهو يشير بكفه إلى صدره:

– لا تخف، فنحن لن نضرك بشيء. أنا **عجيب الزمان** "المخايل" وهذا **أبو العجب** مساعدي أو "الحازق" الذي يقوم بالغناء والضرب على الدربُكة أثناء تقديمنا لعروضنا.

لم يستوعب **محمود الغريب** ما قاله الرجل، ولم يفهم لماذا أوقع به. من الواضح أن **عجيب الزمان** خطط لذلك، وبالتالي لا يمكن استئمانه أو الثقة فيما يقوله. أحس بأطرافه تتوتر وكفيه ينقبضان استعدادا لتوجيه اللكمات إلى غريميه إذا اقتضى الأمر.

رفع الرجل ذراعه بحركة مسرحية كأنه يخطب في جمع غفير وقال:

– لا تخف منا فنحن من بني ساسان لا جاه لنا ولا مال، ولا نملك إلا القيل والقال. الناس يسموننا الساسانيون والذعار أو الأوباش والشطار. لكن من يعرفنا يجد مجلسنا بديعا وحكينا مؤنسا.

اقترب مساعده حاملا الدربُكة تحت إبطه وفي نفس الوقت ملوحا بمرآة صغيرة استخدمها بلا شك في إرسال الومضات التي جذبت انتباه **محمود الغريب**. قهقه الشاب بنبرة هازئة وقاطع صاحبه:

– لا تستمع إلى **عجيب الزمان** فإنه ريس الأكادية الموسوم باللجاجية، أنظر إليه فهو يتعامى مبصرا ويتطارش منصتا، إنه مهذار ثرثار يغويك بالحكي ويسحرك بالنمنمة والنميمة.

صاح فيه **عجيب الزمان**:

– يا **أبا العجب** لا تلبس وجوه الوقاح، لقد جئنا اليوم للبلاغ والتصريح بسرنا. لم يعد بيننا من يستطيع روي حكاية الغارة، بعد أن تخارس الناس واهمين أن الخرس لسان الفرج.

– ما لنا بهذا الأمر، أنت أعلم بأن المرء يسعى والرزق مقسوم، ونحن ليس لنا إلا السياحة في الأرض والترحال بين الأنام. ماذا سنجني من وراء هذه الحكاية الملعونة؟

– يجب أن يعرف الناس حقيقة ما جرى، وإن لم نروها ستندثر الحكاية وينتصر القهر والطغيان.

صاح **الغريب** فيهما:

– عن أي قهر وطغيان تتحدث؟ قل لي، أين ذهب مساعدي **شبل السباعي**؟

ضحك **عجيب الزمان** وانحنى فوق الجوال الذي وضعه على الأرض أمام **محمود الغريب**، ثم رفع رأسه وقال ساخرا:

– ربما سنجده في هذا الجِوال. اقترب قليلا سأريك العجب العجاب.

فتح **عجيب الزمان** فم الجِوال وأخرج أشكالا تتكون من عِصِيّ خشبية مشدود بينها رقع من الجلد. رفع واحدة منها وفردها فظهر شكل رجل له أنف معقوف وشارب ملفوف وقد أمسكت ذراعه الخشبية بسيف مسلول. تأمل **الغريب** النمنمة البديعة التي تزين القطع الجلدية التي تمثل ملابس الدمية وسماتها. حرك **عجيب الزمان** عصا خشبية فتحرك الذراع الممسك بالسيف. جذب عصا أخرى فمالت الرأس إلى الأمام ثم إلى الخلف.

سأله **الغريب**:

– ما هذا، هل تسخر مني؟

هزّ **عجيب الزمان** الدمية الخشبية، ثم ضحك وهو يحرك بالتناوب ذراعها ورأسها. أجاب في انشراح:

– أنت غريب عن هذه الناحية، لكنك مفوض بمعاينة ظلال القرى المنكوبة وترسيمها، لذلك يجب أن تفهم الحكاية، "من طقطق إلى السلام

عليكم"، قبل أن تنتهي من عملك. هذه شخوص الخيال التي صنعتها من الأخشاب وزينت أشكالها بالجلود المنمنمة. هذه الدمية تمثل **حماد المشاعلي**، هل سمعت عنه من قبل؟

سحب **عجيب الزمان** عرائسه الواحدة بعد الأخرى ورفعها أمام **الغريب** ثم نظر إلى **أبي العجب** نظرة ذات مغزى وهو يتابع كلامه بحماس:

ـ أما هذه "الشخيصة" فتمثل **مقدام المواسي** وتلك **لحسون الموزون** وأولئك هم **هلال المنجم** و**زغبر الكلبي** و**نباتة العشاب**. كلهم هنا في هذا الجراب، وفي اللحظة المناسبة عندما تظلم الدنيا سيسطع نور مصباحي فتظهر شخوص الخيال على قماشة العرض، وتدب الحياة في عرائسي لكي تحكي للداني والقاصي أحداث الغارة وما جرى في المغارة.

علق **أبو العجب** بلا مبالاة:

ـ لا تصدق كل ما يقوله معلمي، واحترس من الشباك التي ينصبها لك، ولا تنس أنه ريس الأكادية والذعار والأعيار.

لم يهتم **عجيب الزمان** بما قاله مساعده، لكنه ركز عينيه على **الغريب** كأنه سيعطيه هدية لا يمكن رفضها وقال:

– على فكرة يمكنني عمل "شخيصة" لك أنت و**شبل السباعي** وللخفيرين اللذين أتيا معكما.

نظر إليه **محمود الغريب** باستغراب وبانت عليه علامات الارتباك، وبادله **عجيب الزمان** نظرات الاندهاش بسبب تردده في قبول هديته وتعجب لعدم ترحيبه بها. تابع **عجيب الزمان** كلامه في نبرة ناصحة:

– إنني جاد فيما أقوله! وأرجوك لا تتعجب مما عرضته عليك، لأنها فرصة لا تُعَّوض. أنت حر، لكن لا تتركها تفلت من بين يديك.

عقب **أبو العجب** موجها كلامه لمعلمه:

– لا تضيع وقتك معه، فهؤلاء الوافدون من الشمال لا يستوعبون حكايات الصعايدة ولا يفهمون أحوالهم. هيا بنا لقد أبلغناه بما نريده.

رفع **عجيب الزمان** الجوال على كتفه وانطلق الاثنان مخترقين شارع تراكمت فوقه أنقاض البيوت المهدمة، وقبل أن ترمش عين **الغريب** تلاشت ظلالهما. وقف في مكانه غير مستوعب لحقيقة هذا اللقاء العجيب، وغير مدرك لما يجب عليه عمله.

بعد قليل رجع الخفيران وأعلنا أنهما فتشا كل خرائب القرية ولم يعثرا على أحد. وأكدا مرة أخرى أن ما شاهده **محمود** ليس إلا كلبا شاردا يبحث عن طعام وسط الأنقاض. سألهما في نبرة غاضبة عن **السباعي**، فلم يرد أي منهما وأطرقا في حرج واضح.

لم تمض ساعة من الزمن حتى ظهر **شبل السباعي** خارجا من أحد أبراج الحمام القريبة منهم. تقدم نحوهم وهو يعتذر لأن النوم غلبه عندما حاول أن يستظل من قسوة أشعة الشمس.

***

مقدام المواسي

يذكر **جساس** يوم وصول خاله **عبد المنعم** في عربة "حنطور" سوداء يجرها فرس أشهب يكثر من الصهيل ولا يكف عن دق الأرض بحوافره. في ذلك الصباح لملمت أمه أغراضه هو وأخواته البنات. قبلته جدته **بدرية** وضمته إلى صدرها فامتلأت روحه بأنفاسها، لم يعلم وهو الذي لم يبلغ الثامنة بعد أنه لن يراها ثانية وأنها تعانقه لآخر مرة، ولم يتخيل أنه لن ينسى رائحتها رغم مرور السنين. يومها ضايقه تجهم أمه وأزعجته النبرة الصارمة لصوت جدته، خاله توسل إليها لكي تركب معهم لكنها رفضت بإصرار غريب. أخذ يرجوها لكي تسافر معهم لكنها صممت على البقاء في دارها حتى يعود ابنها. هل استبدت بها الأوهام؟ أم أنها أرادت أن تثبت للناس

جميعا أن **المواسية** لا يفرون أمام التهديدات مهما بلغت خطورتها، وأنهم لا يتركون بيوتهم خاوية للقتلة والمجرمين. احتضنت **جساس** وهي تودعه فاجهش بالبكاء لكنها نهرته وقالت في صرامة لم يعهدها من قبل:

– ثق بأن رجال **المواسية** لا ينتحبون مهما حصل.

مسحت دموعه وأضافت أنه يجب أن يتذكر هذه اللحظة وألا ينساها حتى توافيه المنية. رفع ذراعه وجفف دموعه بكم جلبابه، ثم هز رأسه وهو يعد جدته، في صوت خافت لا تكاد تسمعه، بالكف عن البكاء. الآن وبعد كل هذه السنوات أدرك **جساس** أن ما أرادته جدته في ذلك اليوم هو أن يعيش حفيدها مهما تداعت الأحوال ومهما اشتدت الخطوب.

رغم نذر الشؤم التي أحاطت بالدار في ذلك الصباح، لم يكف **جساس** عن اللعب في الفسحة بين الإيوان وفرن الخبيز. الريح كانت تقذف بحبيبات الرمال المسنونة في وجهه لكنه لم يهتم. يشاكس أمه التي تنهره، فيسرع إلى أخته الكبرى شاكيا، فتهون عليه وتعطيه كسرة من قمع السكر. لم يزعجه يومها سوى اختفاء **صادق**، غلام أبيه، الذي اعتاد أن يلعب معه. بحث عنه في كل مكان فلم يجده، سأل أمه عنه فلم ترد، لجأ إلى جدته **بدرية** فلم يحصل منها على جواب شاف. استغرب جلوسها هكذا بجوار الفرن في لباسها الأسود، ففي الأيام العادية كانت جدته لا تكف عن الحركة ذهابا وإيابا بين حجرة الطبيخ وغرفة الخبيز. في هذا الوقت من الصباح كان حسها يملأ الدار وهي تخاطب خادماتها بصوت آمر، أو تنادي على أمه لتعد وجبة الغداء لأبيه. لم يدرك وقتها سر ذلك الصمت الغريب الذي

ألم بها أو أسباب انشغال أمه بلملمة أغراضهم. لم تقد جدته نار الفرن الذي عادة ما تنبعث منه رائحة الخبيز المحببة إلى نفسه. يسمع همسهما وهما تتحدثان عن ضرورة الرحيل إلى "التناغة"، فيفرح للقائه الوشيك بأولاد أخواله.

خاله خاطب أمه في تجهم وحثها على الانتهاء من جمع أغراضها وتحزيم أمتعتها. وضع الصرر والحقائب في مؤخرة العربة، ثم رفع **جساس** وأجلسه بجواره على المقعد الأمامي. شعر **جساس** باضطراب أمه التي احتضنت أخواته الجالسات وراءه فوق المقعد الخلفي بعد أن سحبت فوق رؤوسهن غطاء العربة. سالت دموعه مرة أخرى عندما ودعته جدته، إلا أنه سرعان ما التهى عن فراقها بلجام الفرس الذي ناوله إياه خاله لكي يقود "الحنطور".

طال المقام بهم في "التناغة" ولم يرجع **جساس** وأخواته إلى قريتهم. بقي مع أمه في كنف خاله الكبير **إسماعيل مهران**. مرت عليه أيام طويلة افتقد فيها أباه وما كان يمنحه إياه من اهتمام وعطف. لم ينس كيف كان يصعد معه في العربة "الكارو" إلى الدير القابع في حضن الجبل حيث كان أبوه يبيع للرهبان ما تنتجه أراضيه من غلال وخضروات. يذكر بالذات ذلك اليوم عندما جلس أبوه أمام بوابة الدير متحدثا إلى الراهب الشاب **يوأنس**. يومها ترك أبوه العربة في الدير، وحمله معه إلى مغارات "المساخيط". صعد به الدرج المنحوت في الجبل حتى وصلا إلى فجوات تؤدي إلى حجرات واسعة يغمرها الضوء القادم من المدخل. أزعجته يومها الرسومات المنقوشة على الجدران الملساء والتي تمثل السكان القدماء لبلدته. لم تعجبه شعورهم

المرسلة وذقونهم المدببة، وأزعجه ازدحام الجدران بمئات الأشكال. أبوه كان يضحك منه ويمازحه، لكن لم يقلل ذلك من فزعه أو يخفف من روعته خاصة عندما اكتشف بقايا عظام لحيوانات صغيرة متناثرة على الأرض الصخرية. عندما خرجا من المغارة أغشت الشمس بصره قبل أن تنكشف أمامه أرض الجزيرة الوارفة التي امتدت من بيوت قرية "الشيخ جابر" إلى نهر النيل، وانطبع في ذهنه منظر الوادي الأخضر الذي تزينه أشجار النخيل وتتوزع فوق أرضه مباني القرى والنجوع بينما ترتفع أبراج الحمام بين تلك الكتل الطينية.

مع مرور الوقت اختلفت الأحوال وتبدلت الطريقة التي يعامله بها أبناء أخواله، فأصبحوا جميعا ينادونه باسم **مقدام** وامتنعوا عن تسميته **بجساس**. يسأل عن أبيه فلا يرد عليه أحد من أخواله، ويستفهم عن "الشيخ جابر" فلا يلقى تفسيرا لاستمرار وجوده هو وأخواته في "التناغة". ماذا جرى لدارهم؟ ولماذا تركوا قريتهم وهجروا أباه وجدته **بدرية**؟ يسأل أمه عن العودة إلى بيتهم فتشيح بوجهها وتتمتم بكلمات غير مفهومة. تتوسل إليه حتى ينسى "الشيخ جابر" وأهلها. تهمس في أذنه أن اسمه الآن أصبح **مقدام** وتحذره من التجاوب مع من يناديه **بجساس**. في ذلك العمر الغض فقد أباه وجدته، ولأسباب يجهلها هجر قريته، وأصبح عليه أن يحاول نسيان اسمه. مع مرور السنين تزاحمت في ذهنه التساؤلات وتزايدت حيرته.

ألحقته أمه بكُتَّاب القرية حيث حفظ القرآن، وعندما بلغ العاشرة اصطحبه خاله **عبد المنعم** الطواب ليعاونه في أعمال البناء. أراد تعليمه ضرب الطوب اللبن فأخذه معه ليشاهد أشغال توسيع ميضأة مسجد

القرية. عندما اقتربا من المسجد كان **حسون الموزون** منكفئا فوق كومة من التراب والطمي، كان يعمل بجد وهو يضيف التبن إلى الطمي ويخلطهما معا بالماء. رفع **حسون** رأسه وألقى عليهما السلام قبل أن يقف ليرحب بهما وهو يمسح كفيه بخرقة مبلولة. الخال **عبد المنعم** عرفه **بمقدام** وطلب منه تعليمه كيفية ضرب الطوب اللبن. أشار **حسون** إلى القوالب الخشبية المرصوصة بالقرب من حائط المسجد وطلب من **مقدام** أن يحضر له بعضها. خلع **مقدام** جلبابه وحمل على كتفه عددا من تلك القوالب ووضعها أمام **حسون** الذي بدأ يشرح له كيفية تنظيفها من عوالق الطين بأداة صلبة أخرجها من جرابه وأعقب ذلك بدعكها مستخدما التراب الجاف ثم قام في النهاية بغسلها بالماء. الخال **عبد المنعم** طلب من **مقدام** أن يقوم بتنظيف بقية القوالب الخشبية بينما وضح له **حسون** كيفية رصها على مساحة مستوية من الأرض استعدادا لتصنيع الطوب. نشط **مقدام** في تنظيف القوالب ثم رصها في صفوف متراصة، ونفذ أمر خاله بأن يترك مسافة تسمح بالمرور بينها لغرض مراقبة الطوب وتقليبه حتى يجف.

انهمك **حسون** في تقليب الخليط الذي شكله على هيئة كومة كبيرة في وسطها حفرة أخذ يصب فيها الماء، ثم بدأ بتحريك الخليط الطيني حتى امتزجت جزيئاته. ملأ **حسون** القوالب بخليط الطين والتبن، وكبسها بيديه لإخراج الهواء ولتكثيف اللبنات خاصة عند الزوايا، ثم ناول **مقدام** خشبة مستقيمة لكي يقوم بتسوية السطح العلوي للطوب. تركهما خاله فأمضيا ساعات الضحى يعملان بهمة ونشاط للانتهاء من تشكيل اللبنات

اللازمة لتشييد حوائط الميضأة. **حسون** بين له كيفية نزع القوالب عندما رجعا إليها في اليوم التالي.

في الأيام التالية قام **مقدام** بمعاونة **حسون** للانتهاء من عملية ضرب الطوب. صنعة مرهقة لكن الاشتغال بها أسعده. في كل يوم يكتسب خبرات جديدة، ويتقن الأعمال التي يطلبها منه **حسون**. هدما الحائط الغربي للميضأة وحفرا أساسات الجدار الجديد. عاد خاله إليهما بعد أن جفت اللبنات وانتهيا من تجهيز الطوب لعملية البناء. أحضر خاله عربة "كارو" محملة بالأحجار التي أنزلها هو و**حسون** ثم أعدا الملاط من خليط الرمل والجير. جلس **مقدام** بالقرب منهما وراقبهما أثناء تشييد قواعد الجدار من الحجارة. قام **حسون** بتسويتها بأداة حادة من الحديد بينما انشغل خاله برصها بعد إضافة طبقة من الملاط بينها. في اليوم التالي أضاف **حسون** طبقة سميكة من الملاط فوق المدماك الأعلى لتسطيح أساس الجدار وتركها لتجف قليلا ثم أكمل مع الخال **عبد المنعم** البناء مستخدمين الطوب اللبن الذي ناوله لهما **مقدام**. في النهاية اشتركوا جميعا في تغطية الجدار بالملاط.

مع مرور الأيام أتقن **مقدام** صنعة البناء فأصبح يُعرف بين أهل "التناغة" **بالطواب**، وذاع صيته بين الكفور والنجوع القريبة فصار أعيان الناحية يبعثون إليه لتشييد بيوتهم وإنشاء مباني مزارعهم. ومن ناحيته فلقد سعد **مقدام** بالتنقل بين النجوع المنتشرة حول "التناغة". وأدت طبيعته السمحة وأخلاقه الكريمة إلى ثقة الناس به فتوطدت علاقاته مع أهالي الناحية.

***

هلال المنجم

جلس الحاج **أحمد مشهور** على المقعد الوثير في شرفة دار العمدة **عبد العال العقالي** المطلة على البحر في "كفر علام". مد نظره إلى النهر الذي بدأ منسوبه في الارتفاع مع تقدم أشهر الصيف. **عبد العال** قدم له كوبا من الحلبة المغلية وهو يشكو من "الشوطة" التي أخذت أعدادا هائلة من ماشية الناحية خلال الأشهر القليلة الماضية. تجهم وجه الحاج **أحمد** وهو يسهب في وصف الخراب الذي حل بأهالي "الشيخ جابر" و"قاو الكبرى" وكل قرى البر الشرقي من "ريانية الهريدي" إلى "البداري" واستفاض في تصوير حالات العوز والفقر التي حلت بقراهم التي اشتهرت دوما بالرفاه والازدهار. تابع كلامه في رصانة:

– شحت الأقوات، وقلت الأرزاق، ولم يعد هناك ما يكفي من البهائم لدرس القمح، أو تدوير السواقي لري الحقول أو حرث الأرض استعدادا لموسم الزراعة القادم.

عقب صاحبه:

– بالإضافة إلى خسارة مواشيهم فإن الفلاحين يعانون أيضا من زيادة الضرائب ويقاسون من صعوبة زراعة أراضيهم.

– كلنا نعلم كيف سَخَّرَت الحكومة الكثير من الفلاحين للعمل في تطهير ترعة "المحمودية" وفي حفر ترعة "السويس". القليلون المتبقون في قراهم لن يتمكنوا من حرث أراضيهم دون مواشي، هؤلاء لن يتمكنوا من تجهيز حقولهم للزراعة قبل فيضان النيل.

أطرق **عبد العال العقالي** ولم يرد، كأنه يدرك أن ما قاله صاحبه هو عين الصواب. استأنف **أحمد مشهور** الإفصاح عن تذمره:

– وللأسف العمد وموظفو الحكومة لا يعنيهم ما جرى للأهالي وللفلاحين، فهم لا يكترثون بما حل بنا، ولا يستمعون إلى شكوانا ولا يعيرونها أي اهتمام.

أجابه العمدة محاولا تبرير ما يحدث:

– لا تعتب علينا، فالعمد ينفذون أوامر الحكومة التي ترفض تخفيف الضرائب، لقد حاولنا مع مدير المديرية لكن لم نجد عنده آذانا صاغية.

– الخديوي يعتقد أن نظمه الجديدة وطرق الزراعة الحديثة ستؤدي إلى تقدم البلاد ورفعة شأنها وانتشار الرخاء، لكنه لا يدري أنه بأفعاله تلك

يفسد علينا معيشتنا ويبتلينا بهموم الدنيا والآخرة.

ارتسم الغم على ملامح العمدة **عبد العال** الذي رفع كفيه إلى السماء وأضاف:

– الله يحفظنا، ويرحمنا برحمته.

تابع **أحمد مشهور** كلامه:

– مما زاد الأحوال سوءا كان تجنيب أجزاء واسعة من أراضي القرى لزراعتها لحساب مصانع السكر التي شُيدت في الآونة الأخيرة من "أسيوط" إلى "نجع حمادي". الناس خلاص فاض بهم وصعبت أحوالهم. يتحايلون على الأرزاق ويبذلون كل جهدهم لكن دون جدوى.

– ألهذه الأسباب ينصتون إلى ذلك الشيخ المعتوه الذي يروج لتلك الأفكار المخربة.

– أتقصد الشيخ **أحمد الطيب**؟ إنه ولي جعفري من أولياء الله، جاء إلى بلداتنا من "قنا" وأحبه الناس وسعوا إليه في المساجد التي يصلي بها، فاستمعوا لخطبه وتابعوا دروسه.

– لا بد أن نُحذر الناس من أمثاله. هل تعرف أن أباه **أحمد الصالح** ادعى أنه "المهدي المنتظر" وألب أهالي "قنا" على الباشا الكبير منذ أربعين سنة. أثار الناس وصارت فتنة عظيمة وحربا وتقتيلا. جمع حوله عشرات الآلاف من العاصين الذين خرجوا عن طوع الوالي. فأرسل إليهم جيشه الذي أحرق عشرات القرى وقتل الآلاف من أهالي البلدات المحيطة "بنجع حمادي" و"السلامية". لقد جلبت أفكار **أحمد الصالح** الخراب على قرى مديرية

"قنا"، ولما جد الجد هرب إلى "الحجاز" وترك الناس لمصيرهم التعس.

تأمل الشيخ **أحمد** "الفلوكة" الراسية على ضفة النهر والتي يستخدمها صاحبه في التنقل بين القرى والنجوع الواقعة في هذه الناحية، ثم عقب على كلام **العقالي**:

– لا أظن أن الشيخ **أحمد الطيب** من هذه النوعية. إنه رجل مسكين طاب له المقام في بلداتنا. يكثر من الصوم والصلاة، ويعقد حلقات الدرس ليرشد شبابنا إلى صحيح دينهم وليهديهم إلى الطريق القويم.

– نحن نتعب ونعرق في أراضينا، نزرع ونفلح ونعاني، أما هؤلاء الدراويش والمشايخ فلا فائدة تُرجى منهم إلا الكلام المرتب، ولا هم لهم إلا الاسترزاق من وراء الدين واستغلال شغف الناس به.

ضحك **أحمد مشهور** معقبا:

– أنت لا ترحم أحد، وقناعاتك دائما تشوبها قسوة لا داع لها.

دخل عليهما **حسين** أكبر أبناء **عبد العال العقالي**. قبل يد أبيه وأخبره بأن الفلاحين قد وردوا حصص الغلال المطلوبة منهم بعد أن ضموا قمحهم ودرسوه. تدخل **أحمد مشهور** في الحديث متسائلا عن الأسعار التي يعرضها تجار الغلال. أجابه **حسين العقالي** بأن أسعار الشراء تقل الثلث عن العام الماضي. اكفهر وجه **أحمد مشهور** وقال في غضب:

– إنهم يسرقوننا في عز الضهر! بالأمس بعثت **عبد الرحمن** إلى الخواجة **كوزموس** لكي يعرض عليه شراء القمح الذي ملأنا به الشونة.

قال العمدة ناصحا:

– اعمل حسابك، سيقل ثمن الغلة بمقدار الثلث ولو انتظرت أكثر من اللازم سينزل النصف. سيحصل التجار على ما يكفيهم من القمح ثم يكفون عن شرائه.

– هل تعني أننا لن نجد من يشتري محصول هذا العام؟ الحكومة ستجبي حصتها من القمح، وسنحتفظ بما تحتاجه بيوتنا. لكن ماذا سنفعل بالكميات المتبقية؟ إن لم نبعها فلن نغطي مصاريف زرعتنا. خسارة جديدة نضيفها إلى ضياع مواشينا.

– من المهم أن ننظر إلى المستقبل. لا يمكننا أن نستمر في الشكوى بلا عمل حقيقي. أنا من ناحيتي أبذل كل ما في وسعي لمساعدة ناسي في "كفر العقال".

سأله **أحمد مشهور**:

– ماذا ستزرع هذا العام؟ أراضي الدلتا سمحوا لها بزراعة القطن، لكننا هنا يفرضون علينا زراعة الحبوب التي تدنت أسعارها ولم يعد أحد يريد شراءها. التجار الأروام والخواجات لن تفقرهم زيادة أسعار الشراء قروشا قليلة.

أجابه **عبد العال العقالي**:

– الغلال كانت دائما مصدرا للخير لنا ولأهلنا. انظر حولك لترى النخيل الذي يمتد على ضفاف النيل وينتشر إلى نهاية أرض الجزيرة حتى "قاو الشرق"، وأبراج الحمام التي تزين قرانا، كل ذلك يشهد على الخير الذي عمّ هذه الناحية والذي يسر حالنا حتى العامين الماضيين. أجدادنا

علمونا أن الأيام دوارة ولا بد أن نحسب حساب السنين العجاف.

– "أول عن أول" الأحوال كانت جيدة، لكن التدهور المستمر في أسعار الحبوب ضيق الأرزاق وأرهق الجميع.

– أعرف جيدا ما تعنيه، لحسن حظي سمحت لي الحكومة بزراعة أراضي "العهدة" بالقصب الذي سأقوم بتوريده لمعامل السكر.

قام **عبد العال** ليشرف على إعداد طعام الغداء لضيفه. مد **أحمد مشهور** بصره إلى قمم النخيل الذي يتراقص سعفه في الهواء. أحس **مشهور** بالسكينة وهو جالس في ظل تكعيبة للعنب متأملا الزهور الحمراء التي ترمقه من بين فروع شجيرات الرمان المتراصفة في صفوف منتظمة في حديقة الدار وتنحدر حتى تصل إلى ضفة النهر. لقد جاء ليطلب مساعدة صديقه بعد تدهور أحواله المالية وتأكده من عدم قدرته على النهوض بالتزامات العام القادم. **عبد العال** أصبح أخيرا عمدة "كفر العقال" وأصابه من وراء ذلك نفع كثير. يسرح في السنوات التي مرت مسرعة منذ أن تنافسا كشابين يافعين في حلبة التحطيب أثناء إحدى الاحتفالات بمولد "الشيخ جابر". لقد استمرت صداقتهما لسنوات طويلة توطدت خلالها علاقتهما خاصة بعد أن تزوج **حسين العقالي** من **فاطمة** كبرى بناته. يعلم **أحمد مشهور** أنه يستطيع الاستدانة من المرابين و"الفايِظْجِية" المنتشرين في قرى ومدن المديرية، لكنه يعرف أيضا أنهم سيكلفونه فائضا باهظا سيؤدي حتما إلى خراب بيته وضياع أراضيه.

رجع **عبد العال** ممسكا "بطشت" وإبريق نحاسيين ليغسل صاحبه يديه. أكمل حديثه:

– هل سمعت ما يروج له الشيخ **الطيب** من أفكار بين الأهالي؟ أنه يطالب بتوزيع الأراضي على الفلاحين بالتساوي، ويدعي أن هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق العدل والإنصاف.

– ما تقوله ليس حقيقيا! فأنا التقيت به أكثر من مرة. إنه رجل مبارك وولي من أولياء الله. ما تسمعه عنه ليست إلا شائعات لا أساس لها من الصحة.

أدخل العمدة يده في سيالة جلبابه وأخرج ساعة جيب من الصديري. قرب الساعة من عيني صاحبه ثم سأله:

– ماذا سيحدث لو فككت أجزاء هذه الساعة ووزعتها على الناس؟

ابتسم **أحمد مشهور** وأجاب في بديهية:

– لن تعمل ولن يمكنك تحديد الوقت.

أضاف العمدة في ثقة:

– وأكيد لن يستفيد أحد من مكوناتها إذا تفرقت بين الناس.

رد **أحمد مشهور** في حيرة:

– لم أعد أدري ماذا يحدث لنا. نحن أعيان الناحية بالكاد نبقي رؤوسنا فوق السطح. ماذا سيكون مصير الناس الغلابة؟ لن يمكنهم احتمال هذه الظروف السيئة ولذلك يحتاجون لمن يرشدهم إلى سواء السبيل.

– هذا واجبنا كأعيان ووجهاء هذه القرى. إن لم نقم بواجبنا فسيتبعون

أي محتال يغويهم بكلامه المعسول. اليوم أعددت لك مفاجأة. هناك شخص غير عادي، أريدك أن تقابله.

قام **عبد العال العقالي** من مكانه ونادى على ابنه **حسين** الذي جاء إلى الشرفة مع رجل يرتدي جلبابا مرقعا ويغطي رأسه بعمامة خضراء. الرجل ألقى عليهما السلام ثم أقعى بجوار الحائط. مال **عبد العال العقالي** على صاحبه متسائلا:

– هل سمعت عن **هلال المنجم**؟ سره باتع ومكشوف عنه الحجاب، لقد ذاع صيته أخيرا في "طهطا" والبلاد المحيطة بها، لذلك بعثت إليه لكي يقرأ لنا الطالع.

أجابه **مشهور** في صوت هامس:

– وهل تصدق يا عمدة في تلك الخرافات؟

– لن نخسر شيئا! فلنستمع إليه. ربما أفادنا وكشف لنا المستور من أسرار هذا الكون.

قام **هلال** وتقدم نحوهما وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة. لم يرتح **أحمد مشهور** إلى شكله وتصرفاته، وتساءل في سره عن جدوى ما يفعله صاحبه. قال له **هلال المنجم** دون أن يرفع رأسه:

– هل تخفي شيئا تهاب انكشافه؟ **المشاهرة** معروف عنهم الشجاعة ولن يخيفهم عبد فقير مثلي.

ركز **هلال المنجم** نظرته الثاقبة على **أحمد مشهور** وهو ينظر إليه من تحت جبهته المنحنية في مسكنة مصطنعة. ضحك **عبد العال** وهو يسخر من **هلال المنجم** لأنه أثار ريبة صاحبه:

- لا تخف! قد ينبح أحيانا لكنه لا يعض.

علق **المنجم**:

- سامحك الله يا عمدة. أعطني كفك.

مد **هلال** يده وأمسك بكف **عبد العال**، ثم سكت لوهلة قبل أن يخرج ورقة من جيبه ويبدأ في طيها وفي نفس الوقت أخذ يستفسر من العمدة عن اسم ابيه وجده وتاريخ ومكان ميلاده، بعد كل إجابة كان يطوي الورقة وهو يتمتم بصوت غير مسموع حتى صارت الورقة في حجم حبة الفول. طلب كوبا من الماء المحلى بالسكر، ثم ابتلع الورقة المطوية وشرب فوقها الماء. أغمض عينيه ثم رفع رأسه، وعندما فتح عينيه حدق بنظرة ثاقبة في العمدة. ساد صمت مريب، أخيرا وجه كلامه إلى **العقالي** وهو يقول:

- في بطون الثكلى من النساء
سيئن مَنْ ثوى مِنْ الرجال،
فعجل بتطبيب الخواطر والآلام
حتى يطيب لك الجاه والمال

سكت **هلال المنجم** لبرهة ونظر إلى السماء كأنه يستلهم ما يريد إضافته ثم أكمل كلامه:

- بشاير الخير ستجلبها غارة
على الشرق والغرب جارة،
تشيل القريب وتحط الغريب
يا ترى فاضل مين في المغارة

فرح **عبد العال** لما سمعه، وأعجبته نبوءة المال والجاه، فأثنى على **هلال المنجم** واعدا إياه بجزل العطاء لو صدق. التفت العمدة بعد ذلك إلى **أحمد مشهور** ودعاه إلى قراءة الطالع. لكن صاحبه هبّ واقفا وكأن عقربا لدغه. مد ذارعه رافضا أن يقترب منه **هلال المنجم** الذي نفر هو أيضا منه وتراجع بسرعة نحو سور الشرفة، لكنه توقف للحظة وأنشد:

– قالوا ما من محبة إلا بعد عداوة
قلت عجبي من العداوة والحفاوة
ومن الصديق اللي يعادي حبيبه
مع إن غريم الأول والثاني واحد

عندما وصل **هلال المنجم** بالقرب من سور الشرفة قفز فوقه وأخذ يعدو بين شجيرات الرمان نحو النهر وهو يصيح:

– يا حفيظ! يا حفيظ!

قهقه **عبد العال** بصوت عال وهو يتابع **هلال المنجم** الذي كان يجري بأقصى سرعة بين أشجار الرمان. نظر العمدة إلى صاحبه فوجده متجهما على غير العادة. قال **أحمد مشهور** متعجبا:

– من أي مخروبة جئت بهذا العراف اللعين؟ وما هذه الأحاجي والألغاز التي حدثنا بها؟

رفع العمدة منكبيه بلا اكتراث، ورنا ببصره إلى مياه النهر الرقراق. ساد صمت عميق بين الصديقين حتى اخترقته صافرة باخرة تنساب فوق صفحة النيل والدخان الأسود يتصاعد من مدخنتها. رفع **أحمد مشهور**

رأسه إلى السماء فرأى أسراب الحمام تحلق نحو الشرق مبتعدة عن الضجيج المنبعث من محركات الباخرة.

***

حسون الموزون

رسم **حسون** مربعات "السيجة" على الأرض بينه وبين **مقدام** الجالس أمامه تحت شجرة جميز عملاقة. وضع كل منهما "كلابه" بالتناوب في المربعات الخالية. حكى له **حسون** عن بلدته "عرب المطير" التي تقع على تخوم الصحراء. روى له عن طفولته وصباه في قريته، وأسهب في وصف شغفه بالخروج إلى الصحراء مع أقرانه. روايات **حسون** ذكرت **مقدام** بقريته "الشيخ جابر" وبمغارات "المساخيط" التي حمله أبوه إليها. تساءل:

– وهل يوجد أثار للفراعين في "عرب المطير"؟

أخبره **حسون** عن كل المعابد والمغارات التي رآها في الجبل الشرقي، وكيف أنه عاين العديد منها بنفسه، وذلك غير المقابر الفرعونية التي

شاهدها في الصحراء غرب النيل. تابع **حسون** حكيه عن أسفاره التي أخذته من "المنيا" شمالا إلى "الأقصر" جنوبا حيث توجد مغارات ومقابر مرسوم على جدرانها رسومات بديعة الألوان. تحمس **مقدام** لما سمعه من حكايات وأفصح عن انبهاره بتماثيل العماليق التي تنتصب أمام مداخل المعابد. وحكى أيضا عما رآه من لوحات جدارية حفر عليها الأجداد صورا لحياتهم واحتفالاتهم بالأعياد والمناسبات الدينية. عبّر أيضا عن دهشته للشبه الكبير بين حياة هؤلاء الأسلاف وبين معيشة الناس الحالية. تابع **حسون** حكاياته عن اللقايا التي يجدها المنقبون عن كنوز الفراعين واللعنات التي تصيب من ينتهك حرمة الأموات ويدنس مقابرهم.

استفسر **مقدام** عن الأسباب التي دفعت **حسون** إلى ترك "عرب المطير" والاستقرار في "التناغة"، فحكى له صاحبه عن الفلاتية والمطاريد الذين زادت هجماتهم على قريته، ناهيك عن تنامي أعمال قطع الطرق وسلب المسافرين بسبب قرب بلدته من الصحراء. حرك **حسون** أحد "كلاب" السيجة فحاصر إحدى القطع الأمامية **لمقدام**. أضاف في نبرة متذمرة:

– ضقت بالتهديد المستمر للهجامة والفلاتية، وزهقت من فشل الحكومة في ردعهم. عندما رزقت بطفلي الأول غادرت "عرب المطير" وانتقلت إلى "النواميس" ومنها إلى "التناغة" بعد أن التقيت بخالك الذي عرض عليّ العمل معه وعاملني كأحد أفراد عائلته.

– هل كان الحال بهذا السوء في "عرب المطير"؟

– تزامن ظهور **المشاعلي** مع زيادة هجمات الفلاتية على القرى المتاخمة

للجبل وكسدت أحوال بلدتنا بعد أن هجرها الكثيرون من أهلها.

دق قلب **مقدام** بقوة عندما سمع اسم **المشاعلي**، لكنه تجاهل الأمر وحرك أحد "كلابه" على مربعات "السيجة" كاشفا عن الفخ الذي أحكم نصبه. استدرج قطع **حسون** إلى الجانب الذي يريده، فأتاحت له هذه الخطة محاصرة عدد منها وضمن بذلك الفوز. ابتسم **مقدام** معبرا عن سعادته بالنصر الذي حققه وتساءل:

– هل تقصد **حماد المشاعلي**؟

– ومن غيره؟ مع تفاقم مشاكل الفلاحين انضم إليه الكثيرون منهم، فأصبح لديه حشد عظيم من الفلاتية الذين يحتمون به ويأتمرون بأمره.

شعر **مقدام** بانقباض صدره وأحس بالدماء تدق رأسه حتى أوشكت عروقه أن تنفجر. لقد قتل **المشاعلي** أباه، وأخرجه هو نفسه من بلدته، ومحا اسمه من الوجود، وحرمه من ثروة وجاه أبيه. لقد أصبح بناءً يعيش حياة شاقة ويحصل بالكاد على ما يكفيه من مال. سيرة **المشاعلي** أحيت في صدره مشاعر قديمة، فبعد مضي عشرة أعوم بعثت كلمات **حسون** في نفسه رغبة دفينة بالعودة إلى "الشيخ جابر" والانتقام لأبيه. مهنته كطواب وبناء ستيسر عليه التنقل بين البلدات كما يفعل **حسون**، مما سيمكنه من الرجوع إلى قريته الأصلية دون أن تتعرض حياته للخطر، كما أنه سيجد بذلك حجة ناجعة للتقليل من مخاوف أمه التي منعته دوما من العودة إلى "الشيخ جابر".

التقط **حسون** حصوات "السيجة" وطالبه بلعب دور آخر متذرعا بأن حديثهما عن الأسفار شتت تفكيره وقلل من تركيزه. لملم **مقدام** "كلابه"

وقبل التحدي. على التوالي وضع الصديقان أحجار "السيجة" على المربعات الواحدة بعد الأخرى محاولين احتلال أفضل المواقع. بدا الجد على وجه **حسون** الذي عكست ملامحه تركيزه الشديد، بينما سرح **مقدام** بخياله إلى أيام طفولته في "الشيخ جابر". تذكر **جنات** بنت **مصطفى مشهور**، ابن خالة أبيه، والتي تصغره بثلاث سنوات. لطالما أحب اللعب معها قبل رحيله عن بلدته. صديقه **عبد الرحمن مشهور** وغيره من الصبيان كانوا يعيّرونه بحرصه على قضاء معظم أوقاته معها وكثيرا ما لَـمَّحوا إلى حبه لها. لعله كان حبا حقيقيا لكنه لم يفهم في ذلك العمر الغض حقيقة أحاسيسه وصدق فطرته، فكانت كلماتهم تغيظه رغم سعادته بخصوصية مشاعره نحو **جنات**. يحاول تخيل هيئتها الآن بعد أن أتمت عامها الخامس عشر. لا يعرف إن كانت قد تزوجت أم لا، لكنه يعلم أنها تعدت السن المعتادة للزواج، ويعلم كذلك أن أهلها كانوا سيحجبونها عنه مع بلوغها التاسعة. هل كان سيتزوجها لو بقي في "الشيخ جابر"؟ لا يمكنه معرفة ذلك، فظلال صورتها تتشكل فقط في رأسه، يرسم في ذهنه تعبيراتها ويتصورها على شاكلة تلك الفتاة التي تسكن خياله، صورة بهية لامرأة بديعة الجمال ذات قوام ممشوق وعينين مكحولتين ووجه مليح وثغر بسام.

حرك **حسون** "كلابه" ببراعة وضيق الخناق على قطع **مقدام**. أحس بتعاظم فرص الفوز، فعقد ذراعيه أمام صدره ثم تنحنح وقال:

– سأعرض عليك أمرا رغم علمي بأنه قد يغضب خالك.

رفع **مقدام** بصره نحو صاحبه في تعجب، **فحسون** كان دائما حريصا على

إرضاء معلمه، ولن يقدم أبدا على عمل يغضبه. أكمل **حسون** كلامه:

– أولاد **عمران** أرسلوا في طلبي لإصلاح جدار مقام "الشيخ جابر" الذي تصدع، ويريدون مني ترميم القبة التي تعلوه. يبدو أن مياه الأمطار المنحدرة من أعلى الجبل قد أثرت على أساسات المبنى.

– وهل أبلغت خالي **عبد المنعم**؟ ولماذا لم يطلبوا منه هو ترميم المقام؟

– لقد طلبوا منه ذلك لكنه رفض، فهو كما تعلم لا يريد مغادرة "التناغة" منذ حادثة مقتل عامل الخديوي. هل تذكر بهدلة عساكر صنجق الأربعمائة لأهالي قريتنا بعد تلك المشكلة؟

وافقه **مقدام** وهو يهز رأسه:

– لقد شاهدنا أياما سودا. كادوا أن يقتحموا دار خالي **إسماعيل** بحجة البحث عن القاتل.

– لقد استعمل العساكر هذه الحجة لاقتحام البيوت ونهبها.

عقب **مقدام** قائلا:

– ولا تنس ما تعرض له بعض الأهالي من ضرب وتعذيب لكي يقروا باسم القاتل.

– رغم مرور عدة أشهر على الحادثة إلا أن خالك لا يشعر بالأمان ويرفض السفر بعيدا عن داره وأهله.

تساءل **مقدام**:

– إذن ما مشكلتك إن كان خالي يعلم بأمر ترميم ضريح "الشيخ جابر"؟

حرك **حسون** قطعة من قطعه مهددا دفاعات **مقدام** التي بدأت تنهار بسرعة، ثم رفع رأسه وقال في تهكم:

– وقعت يا ناصح! لا مخرج لك هذه المرة.

في تلقائية مسح **مقدام** رسم "السيجة" بكفه وبعثر الحصوات الموضوعة على مربعاتها معلنا استسلامه. تابع **حسون** حديثه:

– لقد طلبت من خالك أن تأتي معي ولكنه رفض بسبب الأحوال المضطربة في "الشيخ جابر".

– هل تقصد حالة السخط التي أججها الشيخ **أحمد الطيب**.

– لقد زادت شعبية الشيخ في الآونة الأخيرة، وهو يتنقل بين "قاو الشرق" و"النواورة" و"الشيخ جابر"، يؤم الناس في الصلاة ويخطب فيهم أيام الجمع داعيا إلى رفع الظلم عنهم وتخفيض الضرائب وإعادة توزيع الأرض المنزرعة بالتساوي على الفلاحين.

– عرفت من خالي أن كلامه يجذب جموعا كبيرة من الناس للاستماع إلى خطبه ودروسه، وأن كثيرا من المريدين يتبعونه من قرية إلى أخرى.

حسون مال بظهره إلى جذع شجرة الجميز وأضاف:

– العمد ومديرو المديريات يخشون أفكاره ويشكون في نواياه. يُقال إن عبد **العال العقالي** قد حرج عليه دخول "كفر العقال" أو أي من النجوع القريبة.

ضحك **مقدام** وقال:

– لقد أعلن أنه سيقطع رقبته لو اقترب من بلدته.

– كل تلك المشاكل ناتجة عن تزايد أعداد الفلاحين الذين هجروا أراضيهم وعدم تجاوب الحكومة مع شكواهم.

عقب **مقدام** في بداهة:

– لقد أدى ذلك إلى تضخم أراضي "العهدة" التي يضع العمد أياديهم عليها وهم يستغلونها لمصلحتهم الخاصة.

– مثل هذه التصرفات تزيد من تذمر الفلاحين وتقوي من شعورهم بالتعسف والظلم.

علق **مقدام** قائلا:

– الحمد لله أننا نكسب قوت يومنا من عمل آخر غير الزراعة.

– هل ستأتي معي إلى "الشيخ جابر"؟

– يجب أن أستشير خالي حتى لا أغضبه.

أضاف **حسون** في بديهية:

– لديك كل الحق فيما تقوله. يجب ألا نتسرع بإطلاق الأحكام فبين الفكرة والحقيقة ستضنينا دوما ظلال الشك.

– هل تتكلم عني أو عن خالي أم إنك تقصد الشيخ **أحمد الطيب**؟

– اختر لنفسك ما يحلو لك من إجابات!

سكت **مقدام** وهو ينظر بريبة نحو صاحبه ثم قال:

– وهل تعتقد أن الشيخ **أحمد الطيب** على حق في دعواه؟

– لا دخل لي بتلك الأمور! لكن لو صدقه الناس واتبعوه أصبح على حق. المهم يا صاحبي هل ستأتي معي إلى "الشيخ جابر"؟

– سأذهب معك، لكنك تعلم أنني ولدت في "الشيخ جابر" وغادرتها مع أمي في طفولتي. لو ذهبنا إلى هناك لا أريد أن أكشف أصلي لأهالي القرية، سأجد اللحظة المناسبة لفعل ذلك، فأرجو أن تحفظ سري. ولي أيضا طلب آخر، أريدك أن تعثر لي على قبر **بدرية** أم **مساعد المواسي** دون أن تثير شكوك أحد.

***

نباتة العشاب

ازدادت زَماتَة النيل فتصاعدت رطوبة الجو وسكن الهواء. اشتد مرض الشيخ **أحمد مشهور** واشتد سقمه مع ارتفاع مستوى النهر الذي بدأت مياهه تغمر الحقول التي تفصل بينها جسور حياض الري. انعزلت القرى عن بعضها واتسع النهر وتباعدت ضفتاه حتى وصلت مياهه إلى مشارف صخرة الجبل الشرقي. في الليالي المقمرة تجلت المساحة الهائلة من الماء كبحيرة سحرية تنبثق من صفحتها غابات النخيل بتيجانها المتألقة. بحيرة فضية أخذت تتشكل وتتسع مع كل ليلة وتوزعت فوق سطحها جزر مؤلفة من كتل القرى الطينية التي تحيط بها أبراج الحمام. قرية "الشيخ جابر" قبعت في حضن الجبل بينما كانت بيوتها الواطئة تلعق مياه النهر، ولم يعد يربطها

"بعزبة الأقباط" سوى طريق الجسر العريض الذي يتقاطع مع جسر ترعة "القاو" عند "الصليبة".

خلال الأسابيع القليلة الماضية ارتفعت مياه الفيضان وكف الفلاحين عن العمل في أراضيهم وانشغلوا بالأشغال اليدوية في منازلهم أو ترميم بيوتهم وتوسيعها أو تقوية الجسور وتعليتها، وكانوا في تلك الأيام يستعدون لجمع عراجين البلح التي تزخر بها قمم النخيل. قلت الحركة بين القرى بعد أن زادت مشقة التنقل من مكان إلى آخر، وصار الأهالي يتحركون بين القرى والجسور في قوارب خشبية صغيرة.

ظهرت أعراض المرض في نهاية شهر من العمل الشاق حصد فيه **أحمد مشهور** الذرة "القيضي" قبل أن تغمرها مياه الفيضان. قام بفصل حبوبها البيضاء في مسطاحه الخاص وشونها في حواصيل داره. بعد أيام قليلة من استكمال هذا العمل اشتد عليه المرض فزادت سخونة بدنه وخارت قواه، واضطره ذلك إلى ملازمة فراشه ولم يعد قادرا على الخروج من البيت. في البداية شعر بضعف عام فارتاح في داره، وأكثر من شراب الحلبة المغلية والزنجبيل الساخن. تحسنت حالته قليلا قبل أن تجتاحه حمى مصحوبة بصداع شديد وألم خلف العينين ووجع في عضلات جسمه. على الرغم من مرور أسبوع كامل منذ أن أقعده المرض لم تتحسن حالته، بل زادت الأعراض سوءا مع مرور الأيام. حالته المتدهورة أخافت عائلته وإخوته وأبناء عمومته. ابنه **عبد الرحمن** نزل إلى القارب الراسي على الجسر الغربي

للقريـة، وجدف إلى "عزبة الأقباط" باحثا عن **نباتة العشـاب** لكي يعالج أباه ويصف له الدواء المناسب.

دخل الرجل حاملا جرابه الذي احتوى على أعشاب ووصفات طبية اشتهر بها في البر الشرقي كله، فاستقبله الحاج **عبد الكريم مشهور** وقاده إلى غرفة ابنه. جلس **نباتة العشاب** على الفراش بجوار **أحمد مشهور** ووضع كفه على رأسه ثم أخرج منديلا جفف به جبهة المريض، ثم فك أزرار الصديري وضغط بأصابعه على صدره، فانبعثت منه أنات خافتة. عبس **نباتة العشاب** وتجهمت ملامحه. قلب في جرابه وأخرج ورقة ملفوف فيها خليط من الأعشاب المطحونة. طلب من **عبد الرحمن** أن ينقع تلك الأعشاب في ماء بارد من الزير، ثم يحضر له خلاصة المنقوع في إناء مع عدد من الفوط الجافة.

وضع **العشاب** الكمادات على جبهة **أحمد مشهور** وبسطها على ذراعيه ثم قام وجفف كفيه. خرج من الغرفة في صحبة **عبد الرحمن** فاستقبله باقي أفراد العائلة مستفسرين عن حالة مريضهم. **نباتة العشاب** أخبر الحاج **عبد الكريم** بخطورة حالة ابنه ثم وصف للمريض منقوع التمر الهندي لثلاث مرات في اليوم وكذا تناول فصين من الثوم المهروس على الريق في الصباح مع كوب من الماء، وأخيرا نصحه بإعداد مغلي أوراق الجوافة حتى يشرب المريض منه قدحا ثلاث مرات يوميا.

في البداية تفاءل الجميع بزيارة **نباتة العشاب** الذي اشتهر بين القرى بنجاعة وصفاته الطبية، لكن بعد تلك الزيارة مضى يومان ولم تتحسن الحالة

بل زادت وتيرة نوبات الغثيان والقشعريرة التي تنتاب **أحمد مشهور**، ولم تنحصر الحمى بل تنامت وطأتها فبدأت تتسبب في موجات من الهذيان الشديد. الحاج **عبد الكريم** بعث إلى **شمعون المشعوذ** لكي يعد حجابا يساعد ابنه على التعافي، لكن هذه المحاولة باءت هي أيضا بالفشل.

مع مرور الوقت بدأ **عبد الرحمن** يعاني من القلق الشديد واكتأب لقلة حيلته بعد فشل كل محاولات علاج أبيه. أحيانا كنت تراه جالسا وحده وهو يتلو في سره قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ ثم يدعو لأبيه بالشفاء، وفي أحيان أخرى كان يعرب لزوجه **جنات** عن أمله في تعافي أبيه من المرض أو خوفه من استمرار توعكه.

مع مرور الأيام تدهورت حالة **أحمد مشهور** واغتم ناسه وأهل بيته حتى ظهرت بارقة أمل لم يتوقعها أحد، فلقد وصلهم نبأ حضور الشيخ **أحمد الطيب** إلى القرية لكي يشارك أهلها الاحتفال بالمولد النبوي. أقبلت **جنات** على زوجها وحملت إليه ذلك الخبر السعيد، مؤكدة له أن الشيخ له كرامات، لذلك فزيارته لحميها قد تساهم في الإسراع بشفائه. أبلغته أن الشيخ **الطيب** سيحيي ليلة المولد بتلاوة آيات القرآن بعد صلاة العشاء في الساحة المقابلة للضريح، وأنه سيعقب ذلك بالدعاء والابتهال لأهل القرية. ألحت **جنات** على زوجها لكي يدعو الشيخ لزيارة الحاج **أحمد مشهور** والقيام برُقْيَتُه عسى أن يساعد ذلك في تعجيل الشفاء.

في اليوم السابق للمولد وصل الشيخ **أحمد الطيب** بصحبة عدد كبير من المريدين والدراويش. ظهرت قواربهم على صفحة الماء قادمة من ناحية

"الريانية"، استقبلهم رجال القرية الذي تجمعوا عند ضفتها الشمالية وهم يرفعون الرايات الملونة، بينما اعتلت النسوة أسطح البيوت ليشاهدن موكبه المهيب. مد أحد رفاق الشيخ السقالة التي عبر فوقها بطوله الفارع مرتديا جلبابه الأبيض وعمته المصفرة وممسكا بمسبحة من العنبر، يحرك حباتها في ثقة وهو يحملق في المرحبين به. وقف عند طرف السقالة موزعا نظراته على مستقبليه فتعالت عبرات الترحيب به والصلاة علي النبي، ثم اندفع الناس نحو السقالة فعبرها الشيخ نحوهم. تدافع المستقبلون وكل منهم يحاول تقبيل يده الممسكة بالمسبحة. شق الشيخ طريقه بينهم وسار في دروب القرية الصاعدة بعيدا عن ماء النهر. مشى وراءه دراويشه بثيابهم الرثة وهرول خلفهم أهالي القرية. أقبل **عبد الرحمن** على موكب الشيخ فقبل كتفه ورحب به. احتضنه **أحمد الطيب** وسأله عن أبيه ثم أضاف في نبرة صادقة:

– لقد أتيت إلى قريتكم من أجل أن أحتفل بمولد النبي مع أبيك.

طفرت الدموع من عينيّ **عبد الرحمن** وهو يخبر الشيخ بتدهور حالة أبيه، فأمسك الشيخ بيد الشاب المحزون وتابع مسيرته وسط أتباعه ومضيفيه حتى وصل إلى الساحة المقابلة لضريح "الشيخ جابر"، هناك أقبل عليه مشايخ عائلات **سالم** و**عمران** وهم يشددون على رغبتهم في استضافته. صلى الشيخ **الطيب** بالناس، ثم طلب من مريديه الانتظار عند الضريح حتى يرجع إليهم. تأبط ذراع **عبد الرحمن** ومشي معه حتى وصلا دار أبيه. رحب به الحاج **عبد الكريم** ثم قاده إلى حجرة ابنه. حاول **أحمد مشهور** أن

ينهض من رقدته لكن الشيخ **الطيب** منعه من القيام وطلب أن يحضروا له جرة مملؤة بالماء، ثم بدأ يتلو الرُقية واضعا يده على جبهة **أحمد مشهور** ومقربا فمه من عنق الجرة، وبين حين وآخر كان الشيخ يتوقف عن التلاوة ويرشف من مائها. بعد أن انتهي طلب من **أحمد مشهور** أن يشرب من ماء الجرة، ثم قام من مكانه وبدأ يرش الماء في أركان الحجرة. ربت على رأس المريض وبسمل، ثم صرح بأنه ينتظر مجيئه بمشيئة الله إلى ضريح "الشيخ جابر" ليحضر الاحتفال بليلة مولد النبي التي ينوي الشيخ **الطيب** إحياءها.

قبل أن يغادر الشيخ دار **أحمد مشهور** حضر **حسين العقالي** مع أبنائه وزوجه التي جاءت للاطمئنان على أبيها. رحب بهم **عبد الرحمن** الذي سعد برؤية أخته **فاطمة** وأبنائها. أما **حسين العقالي** فقد ظهرت عليه علامات التوتر وصمم على العودة فورا إلى "كفر العقال" بعد أن اطمئن على حميه وتمنى له الشفاء العاجل. فيما بعد أخبرت **جنات** زوجها أن أخته و**حسين** قد جاءا مع العمدة **عبد العال** في مركبه الذي رسي بهم عند جسر البحر لكن العمدة رفض مصاحبتهما إلى "الشيخ جابر" عندما علم بوجود **أحمد الطيب** في القرية وعرف بزيارته لصهره **أحمد مشهور**. أسهبت **جنات** في وصف غضب العمدة **عبد العال** وغيظه لأن وجود **أحمد الطيب** منعه من زيارة صديقه والاطمئنان على صحته.

لم يبال **عبد الرحمن** بما قالته زوجه، بل استمع إليها في حالة من الانشراح ورحابة الصدر، فلقد اطمأن قلبه وهدأت نفسه بسبب المعجزة التي تحققت

في ذلك اليوم على يد الشيخ **أحمد الطيب**، فبعد أن غادر الشيخ منزلهم قام **أحمد مشهور** من رقدته وطلب ماء لكي يتوضأ ثم صلى العصر. تناول بعد ذلك طعامه وارتاح قليلا قبل أن يصلي المغرب ثم ارتدي ملابسه وذهب إلى ضريح "الشيخ جابر" لكي يحضر الاحتفال بمولد النبي. استقبله الشيخ **الطيب** في حبور حيث قام من مكانه عندما رآه مقبلا عليه، فتح ذراعيه وضمه إلى صدره ثم همس في أذنه:

– لقد أتيت إلى "الشيخ جابر" من أجلك. نحمد الله على سرعة تعافيك وقيامك بالسلامة.

***

الصانعة يا بنات

طلب **مقدام** من خاله الإذن في الذهاب إلى "الشيخ جابر" لترميم قبة الضريح مع **حسون الموزون**، لكن خاله اعترض، وأمرهما بالبقاء في "التناغة" خلال موسم الفيضان وذلك لاحتياجه لمساعدتهما في أعمال البناء وأشغال الإنشاءات التي يرجئها الناس إلى الفترة التي تغمر فيها مياه الفيضان حقولهم.

فاتح **مقدام** أمه في أمر السفر، فأبدت تفهما، كأنها أدركت أن ابنها قد اشتد عوده وأن الوقت قد أزف لخروجه إلى الحياة والتحرر من القيد الذي يربطه بها وبحياته في "التناغة". بالطبع أثار ذهابه إلى "الشيخ جابر" مخاوفها وأعاد إلى ذهنها ذكرى ما جرى لزوجها، لكنها كانت تعرف أن

الدم لا يمحوه إلا الدم وأن قدر ابنها هو الأخذ بثأر أبيه. كما أنها كانت تدرك جيدا الدور الذي لعبته هي نفسها، على مر السنين، للإبقاء على جذوة الثأر متقدة. فطنت إلى إنها في تلك اللحظة بالذات لم تعد تملك القدرة على منع ابنها من مواصلة طريقه في الحياة، فامتثلت لما يريده وفي الوقت ذاته استحوذت عليها حالة من الزهو لأن ابنها قرر الخروج إلى العالم المتسع. لذلك لم تقف في طريقه، بل شجعته على مجابهة قدره وحفزته على التخلص من الحياة الآمنة التي عاشها في "التناغة". في نهاية حديثها نظرت إليه طويلا وأرادت تحذيره من الانخراط في الاضطرابات التي تجتاح أرض الجزيرة:

– أنت حر ويمكنك الذهاب إلى أي مكان تريده. أنا شخصيا كنت أود أن أفرح بك وأزوجك قبل أن ترحل بعيدا عنا.

أجابها متعجبا:

– لكني سأذهب إلى هناك فقط لترميم الضريح، ثم أعود إليكم.

– من الطبيعي أن ترغب في الذهاب إلى "الشيخ جابر"، وبالطبع لن أمنعك. لكني سأطلب منك طلبين، الأول هو عدم الاتصال بأخوالك من **المشاهرة**، والثاني هو ألا تفصح لأحد عن اسمك الأصلي **جساس المواسي**.

– أما زلت تخشين **حماد المشاعلي**؟

ردّت في حزم:

– نهايته ستكون على يديك، لكن لا تستهن بمجرم غاشم **كالمشاعلي**.

– أنا أعلم بخطورته ولن أستهين به.

– أرجو أن تتعهد لي بعدم التورط في المشاكل التي تضطرم من حين لآخر في القرى المحيطة "بقاو الكبرى". لن يصيبهم من ورائها إلا الخراب، ولن يصيبك منها إلا الأذى.

أجابها مداعبا:

– كل ما تطلبينه أوامر.

***

انحسرت مياه الفيضان وولدت الأرض السمراء من جديد. أعد **حسون** عدته للذهاب إلى "الشيخ جابر". رافقه **مقدام** بعد أن أقسم لخاله بعدم التورط في الاضطرابات التي بدأت تنتشر بين قرى "القاو". ركبا "فلوكة" من "ساحل سليم" إلى "قاو الشرق"، ثم استأجرا عربة "كارو" أخذتهما إلى الضريح مرورا بالقرى والنجوع والحقول السوداء التي ظهر نبتها فاكتست أرضها بغلالة من خضرة شفيفة.

حارس الضريح ترك لهما غرفته وانتقل للمبيت في منزل أحد معارفه. عاينا الترميمات اللازمة، فاتضح لهما أن الجدار أصابه شرخ عرضي ومال قليلا فاختل وضع القبة التي أصبحت آيلة للسقوط. أصبح الحل الوحيد أمامهما هو تفكيك القبة قبل إصلاح أساسات الجدار المائل ثم إعادة بنائها بعد ترميمه. **حسون** تفقد مسار الماء المنحدر من أعلى الجبل وأوضح لصاحبه ضرورة إنشاء ساتر أو مصد لإبعاد مياه الأمطار من التجمع تحت أساسات الضريح.

قبل الغروب جلس **مقدام** وحده أعلى صخرة تطل على بيوت القرية وتخيل اللحظة التي سيلتقي فيها **بحماد المشاعلي**. جاش صدره بمشاعر متناقضة، وأحس بغضب شديد يضطرم في نفسه، فلا معنى لحياته لو لم ينتقم لأبيه، وهذا يضعه في مواجهة مجرم باطش يخافه الجميع. اللون الأصفر للجبل اكتسى بحمرة الشمس الغاربة. شعر بالوجود الطاغي **للمشاعلي** الذي يسكن دروب الصحاري ومغارات الفيافي ويهابه سكان الوادي، لكن قلبه لم يضطرب وملأه إيمان راسخ بأن الفرصة التي ينتظرها ستسنح له وأن نهاية **المشاعلي** ستكون على يديه.

غابت الشمس وتسلل الظلام إلى سفح الجبل فهبط **مقدام** من فوق الصخرة ومشي في اتجاه الضريح. استقبله **حسون** الذي انشغل ذهنه بموضوع تفكيك القبة، خاصة أن نساء القرية يحرصن على زيارة الضريح في جميع الأوقات، مما قد يعطلهما عن العمل. شرح له **حسون** ضرورة الاتفاق مع الأهالي على تحديد مواعيد الزيارات لتكون في ساعات الضحى، على أن تتوقف النساء عن الحضور إلى الضريح بعد صلاة الظهر.

مهما كان الاتفاق الذي عقده **حسون** مع مشايخ العائلات، فإن الأمور لم تجر حسب النظام المتفق عليه. ففي ذلك اليوم الحار ذهب **حسون** مع **مقدام** إلى الضريح بعد صلاة الظهر. لمح **مقدام** امرأة ممشوقة القوام خارجة من باب الضريح وبجوارها عجوز محنية الظهر تتكئ على ذراعها. وصول **مقدام** إلى الضريح مع صحبه لم يثر دهشة المرأتين المتشحتين بالسواد. العجوز أدارت رأسها نحوهما واعتذرت لعدم مغادرتها المكان في الموعد المحدد

بسبب شعورها المفاجئ بالتعب وحاجتها إلى الراحة. أشار **حسون** إلى حرارة الجو وناولها شربة ماء من الزير. ألقى **مقدام** بنظرة خاطفة إلى المرأة الشابة في اللحظة نفسها التي التفتت هي نحوه. التقت نظراتهما وعلى الرغم من البرقع الذي غطى وجهها إلا أنه تعرف إليها. هل يُعقل أن تقودها الصدفة إليه؟ وهل يمكن للمرء أن يتعرف على شخص ما من نظرة واحدة بعد مرور أكثر من عشرة أعوام على فراقهما؟ وهل تعكس النظرات روح الإنسان التي لا تتبدل مع مرور الزمن؟ الفتاة أشاحت بوجهها بعيدا عنه وهمست في أذن العجوز تحثها على الإسراع بالذهاب.

ما لم يعلمه **مقدام** هو أن **جنات مشهور** تعرفت هي أيضا إليه. في بداية الأمر استغربت هيئة ذلك الغريب الذي بدا مألوفا لها. حاولت ربط الشخص الذي رأته بأي من معارفها لكنها فشلت. التفت إليها فغضت بصرها وشعرت بالحرج، سحبت جدتها من يدها وطلبت منها أن تسرع بالرجوع إلى البيت. عندما ابتعدتا عن الضريح أدركت أن الرجل الذي شاهدته منذ لحظات هو **جساس المواسي** رفيق طفولتها. أدارت رأسها وألقت نظرة ثانية فرأته منكبا على الجدار الذي كان يقوم بترميمه مما أتاح لها فرصة التحقق من ملامحه. أحست بأحشائها تتقلص وتنقبض وشعرت بالإعياء، لكنها تحاملت على نفسها واستمرت في السير بجوار جدتها المتكئة على ذراعها. لقد عاد صديق طفولتها بعد غربة دامت أكثر من عشرة أعوام، لكن ما سر اضطرابها خاصة أنها الآن متزوجة من **عبد الرحمن** ابن عمها؟ لوهلة قصيرة شكت في حقيقة تخميناتها، لو كان هذا الرجل هو **جساس** ابن خالها

مساعد فلماذا لم يأت لزيارة جده **عبد الكريم** وأخواله من **المشاهرة**؟ استقر رأيها على غرابة هذا الأمر وانشغل بالها بكيفية التحقق من أفكارها.

بعد يومين مرت **الصانعة يا بنات** ببيتهم لتعرض على نسائه ما لديها من أسوار وخلاخيل فضية، ومناديل "بأويه" أو "بالترتر"، وأقمشة حريرية وصوفية. إلى جانب بيعها للبضائع التي ترغبها النسوة كانت **الصانعة** تلعب دورا هاما في التواصل بين نساء العائلات وفي التوفيق بين الرؤوس في الحلال. انتهزت **جنات** الفرصة لكي تستفسر منها عن الطواب الذي يقوم بترميم قبة الضريح. **الصانعة** رفعت حاجبيها في تعجب وهي تتساءل:

– وماذا تريدين منه؟ أنت الآن امرأة متزوجة.

ردّت **جنات** في غصة:

– ذهبت مع جدتي لزيارة ضريح "الشيخ جابر" ليحل عقدتي. تعلمين أن سنة كاملة قد مرت على زواجي دون أن أحبل.

– لكن ما دخل ذلك بالغريب؟

– أعتقد أنني أعرفه. هل تتذكرين خالي **مساعد المواسي** ابن جدتي **بدرية** الله يرحمها؟

هزت **الصانعة** رأسها ومصمصت شفتيها تحسرا. فأكملت **جنات**:

– ذلك الطواب يشبه **جساس** ابن خالي **مساعد**.

قلبت **الصانعة** نظرها في وجه **جنات** ثم مالت نحوها وهمست:

– لقد غادر **جساس** القرية منذ أكثر من عشر سنوات، ولا يمكن أن تتعرفي إليه بعد أن صار رجلا ولم يعد الطفل الموجود في ذهنك.

– لكن حدسي لا يخطئ.

– لا تزيدي في هذا الكلام، لو صح ظنك وشم **المشاعلي** خبر قدوم **جساس** إلى "الشيخ جابر" سيذبحه.

اكفهر وجه **جنات** التي لم يخطر ببالها الخطر الذي قد يحدق بذلك الرجل الغريب لو صدق حدسها. قبضت **الصانعة** على كفها وضغطت عليه وهي تكمل نصيحتها:

– اسكتي واكفي على الخبر ماجور. لا أعتقد أن **جساس المواسي** يجرؤ على المجيء إلى هنا، فلا تشغلي بالك بهذه الأفكار.

***

شمعون المشعوذ

أطال **شمعون المشعوذ** النظر إلى أم **جنات** وجدتها **راضية**، بعد أن استمع إلى شكواهما، ثم قال:

– ضروري البنت "مشوهرة" وخلاصها يكون في "الخُلعة".

كان قلق **جنات** وناسها قد تفاقم لأنها لم تحبل بعد مرور عام كامل علي زواجها، فقررت جدتها زيارة **شمعون المشعوذ** لعله يستطيع فك عقدتها. كان **شمعون** غريب عن البلدة ولا يعُرف له أصل أو فصل، فلقد جاء إليها من "بني سويف" واستقر فيها منذ عشر سنوات بعد أن اشتهر بين أهالي القرية كشيخ ذي علم ومعرفة بأمور التنجيم والسحر، وذاع صيته

بسبب قدرته على عمل الأحجبة والتعاويذ لعلاج الحسد والعقم والربط والمخاوية.

جلست المرأتان في حوش داره بينما جلس أخو **جنات** الصغير على البُرش في ركن بعيد وبجواره قفة كبيرة. تلاعبت أصابع **شمعون** بحبات السبحة التي يمسك بها في يده، ثم أردف:

– لازم مَرَة حائض زارتها يوم صباحيتها. لو كان الأمر كذلك فإن علاجها ليس بالسهل. سأعمل لها حجابا مفعوله شديد، ونتيجته ستكون مضمونة، بإذن الله، لو لبسته **جنات** لمدة أسبوع ثم قامت الست **راضية** بما سأطلبه منها.

أجابت أم **جنات**:

– سننفذ تعليماتك بحذافيرها.

– الست **راضية** يجب أن تأخذ حفيدتها إلى مدافن القرية في ليلة بلا قمر، وهناك تتفق مع اللحاد على أن ترقد **جنات** داخل قبر من القبور حتى ينخلع قلبها من الخوف، ثم تأخذها فورا بعد ذلك إلى زوجها ليضاجعها. وإن لم تفلح هذه الطريقة يجب أن تعودا إليّ لكي أخبركما بما يجب أن تفعله ابنتكما.

شكرته المرأتان ونادت الجدة على حفيدها الصغير ليحمل إليها القفة المملؤة بالعطايا والهبات فوضعتها أمام الشيخ الذي أغمض عينيه وهو يلقي عليها السلام ويدعو لها.

انتظرت الست **راضية** حتى آخر أيام شعبان ثم أخذت حفيدتها إلى

الجبانة الهاجعة أسفل صخرة الجبل بالقرب من ضريح "الشيخ جابر". كانت **جنات** قد وافقت على طلب جدتها **راضية** شرط أن ترقد في قبر جدتها لأبيها، **بثينة**، اعتقادا منها بأن روحها الزكية ستحميها من مردة الجان وأشرار العفاريت.

فتح اللحاد القبر وتمددت **جنات** بجوار كفن جدتها المدفونة بجوار أختها **بدرية**. عندما ابتعدوا جميعا شعرت بذراع تحتضنها وتحنو عليها، فأحست بالطمأنينة بدلا من انخلاع قلبها وغطت في نوم عميق. في منامها رأت جدتها **بدرية** كما رأتها آخر مرة، خيال أو طيف امرأة شديدة البأس ذات عينين ثاقبتين ومكحولتين بكحل ثقيل. رأت جدتها جالسة أمام فوهة إحدى المغارات أعلى الجبل، وقد عصبت رأسها بطرحتها السوداء ولبست "اللبة" الذهبية التي زينت صدرها بهالة من الأضواء اللامعة. وفي الحلم أقبلت **جنات** على الست **بدرية**، وهي طفلة في الخامسة، ممسكة بيد جدتها **بثينة**. الجو شديد الحرارة كأيام الصيف، حتى أن كفها الصغير ظل ينفلت من بين أصابع جدتها. أمام فتحة المغارة وقفت الست **بدرية** وهي تعلن أنهما أحسنا بالصعود إلى الجبل لأن مياه البحر تواصل الارتفاع، التفتت **جنات** إلى الوادي فرأت البحر قد اتسع وأغرق أرض الجزيرة كلها، لكن بيوت "الشيخ جابر" بدت كجزيرة عائمة بين الأمواج المتلاطمة. في تلك اللحظة ظهر أمامها زوجها **عبد الرحمن** على هيئته الحالية لكن نظراته كانت زائغة وظهر التوتر الشديد على ملامحه. سألهن عن أبيه، فأجابته الجدة **بدرية** بأنه ركب البحر مع **المشاعلي** والفلاتية. استمر منسوب المياه

في الارتفاع بسرعة كبيرة حتى غطت المياه نصف بيوت البلدة. ولج **عبد الرحمن** إلى داخل المغارة باحثا عن قارب يعود به إلى القرية لكنه لم يخرج منها. دخلت **جنات** المغارة باحثة عنه وأخذت تناديه بابن العم كما اعتادت لكنها لم تجده. بدلا من أن يرد عليها انسلخت آلاف الأشكال المرسومة على جدران المغارة لتتحول إلى أسراب من الظلال السوداء التي أطاحت بها أرضًا، رفعت بصرها إلى أعلى فرأت الظلال تتخبط في طيرانها محاولة الخروج من الكهف. انكمشت الصغيرة على نفسها وهي تحبو على الأرض نحو الضوء الرمادي القادم من فتحة المغارة. أغمضت عينيها فامتلأت ظلمات كهفها بنعيق مكتوم وبصوت جدتها **بدرية** تنادي **جساس**.

استيقظت **جنات** قبل أن تنحبس أنفاسها. صرخت بعلو صوتها وهي تزحف محاولة الخروج من القبر. **مقدام** الجالس أمام مبنى الضريح سمع الصراخ فحمل مصباحه وانطلق في الاتجاه الذي جاء منه الصوت، وعندما وصل إلى هناك رأى ظلالا سوداء تتحرك بين القبور، اقترب بحذر ورفع مصباحه فوجد صبيًا صغيرًا يساعد شخصا ما على الخروج من الفتحة الضيقة لمدفن جدته **بدرية**. استبد به الغضب فلطم الصبي على قفاه. سقط الفتى على الأرض وبدأ يسب ويلعن، في الوقت نفسه سمع صوتا مبحوحا لعجوز تطالبه بالابتعاد لأن الأمر لا يخصه، فأجابها في انفعال بأن المقبرة تخص جدته. ما لبث أن خرج شبح امرأة من المقبرة وسمع صوتا نسائيا يصيح:

– يا لهوي! أنه **جساس** ابن خالي **مساعد**.

جفل **مقدام** فسقط المصباح من يده، انحنى والتقطه من على الأرض ثم أسرع بالابتعاد عنهما. نظرت الست **راضية** نحو المصباح فرأت خيالا يحث الخطى صاعدا الطريق المؤدية إلى أعلى الجبل. تساءلت الجدة:

– وهل يصح **لجساس** أن يرجع دون أن يزور أهله؟ لا يمكن أن يكون هذا الرجل هو **جساس**. يجب أن نعود فورا إلى الدار. أخوك سيستدعي اللحاد لكي يسد القبر مرة أخرى.

أمضت **جنات** ليلة مضطربة وعانت من نوم متقطع فاستيقظت على فترات متقاربة حتى نهضت من فراشها مع أذان الفجر. انشغلت بواجبات البيت، لكن هيئة الرجل الذي رأته في الجبانة لم تفارق ذهنها. تعرف أن حدسها لا يخطئ، وتشعر بأن هناك شيئًا ما يربط بين ذلك الطواب و**جساس**. لقد حاولت خلال الشهرين الماضيين أن تزيح صورته من مخيلتها، لكن ما حدث في الليلة الماضية يؤكد لها صحة حدسها، لو لم يكن هو **جساس** لما ادّعى أن القبر لجدته. مع بزوغ الشمس أعدت لزوجها فطوره ووقفت بالقرب منه وهو يأكل الطعام الموضوع أمامه على الطبلية. ترددت قليلا قبل أن تفصح عن شكوكها، وأخيرا استجمعت شجاعتها وقالت له في نبرة متحيرة:

– هل التقيت بعامل البناء الذي يقوم بترميم الضريح؟

أدار رأسه نحوها ونظر إليها في استغراب وقال:

– وما دخلك أنت فيما يفعله العاملان اللذان جلبهما أولاد **عمران** لترميم قبة الضريح؟

تحرجت **جنات** من سؤال زوجها ونبرة صوته، فتلجلجت قليلا قبل أن ترد:

– أبدا يا ابن عمي، أعتقد أن أحدهما يشبه **جساس** ابن خالي **مساعد**. هل تذكره؟ لقد رأيته يوم تعبت جدتي **راضية** وتأخرنا عند الضريح. **جساس** لم يعد الطفل الذي ترك بلدتنا، لكني لن أتوه عنه.

– هل تقصدين **جساس المواسي**؟ هو لن يجرؤ على القدوم إلى بلدتنا. كل الناس تعرف أن **المشاعلي** لن يتردد في دق عنقه لو شمّ رائحته هنا في "سيدي جابر".

حاولت إقناع زوجها بوجهة نظرها فأضافت:

– لعله يحاول التخفي حتى لا يتعرف إليه **المشاعلي**، ولذلك لم يتصل بناسه.

قام **عبد الرحمن** من مكانه وقال ممازحا:

– لا أعرف يا **جنات!** هذه المرة خيالك شطح بعيدا. الظاهر أن ما حدث ليلة أمس قد أثر في نافوخك.

***

في ذلك الصباح لم يذهب **عبد الرحمن** إلى غيطه مباشرة، لكنه عرج على ضريح "الشيخ جابر" ليلتقي بعاملي البناء. عندما وصل إلى غرفتهما بجوار الضريح وجد **حسون الموزون** وحده، لأن **مقدام** ذهب إلى

"عزبة الأقباط" ليشتري بعض مستلزمات البناء. سأله **عبد الرحمن** عن **جساس** فنفي معرفته بأي شخص له هذا الاسم. من خلال حديثهما عرف **عبد الرحمن** أنهما جاءا من "التناغة" حيث كان **حسون** يعمل لدى خال زميله **مقدام**. هذه المعلومة أثارت ريبة **عبد الرحمن**، على الرغم من أن ردود **حسون** لم تمنحه ما ابتغاه من يقين.

عندما عاد **مقدام** أخبره **حسون** بما جرى، فقال وهو يهزأ من فضول **عبد الرحمن**:

– تخيل الرجل جاء إلى هنا لكي يسألنا عن واحد اسمه **جساس**.

أجابه **مقدام** مصطنعا الدهشة:

– ما البلد كلها عارفة اسمينا!

– أخبرني أن اسمه **عبد الرحمن مشهور**. يبدو أن صديقا له اسمه **جساس** رحل عن القرية عندما كانا طفلين صغيرين.

أدرك **مقدام** أن هناك من عرف حقيقته من بين **المشاهرة**. تردد في ذهنه ما جرى في الليلة السابقة، وانشغل بماهية هؤلاء الأشخاص الذين رآهم في الجبانة. لم يفهم ماذا كانوا يفعلون حول مقبرة جدته في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

لو انكشف أمره فيجب عليه أن يقرر إن كان سيبقى في "الشيخ جابر" أم سيتركها ويعود إلى "التناغة" دون أن ينتهي من عمله بالضريح. لقد تعاظم الخطر على حياته، و**المشاعلي** قد يبعث بمن يقتله في أي لحظة. لم يتصور أبدا أنه قد يجبن أو أنه سيفشل في الثأر لأبيه. لو حصل فلن يمكنه رفع رأسه بين الناس ولن يتسامح أبدا مع نفسه. لم يعد أمامه إلا أن يلتقي

بعبد الرحمن لكي يكف صديقه القديم عن السعي وراء التحقق من أمره وليطلب منه كتمان سره.

في طريقه إلى غيط **أحمد مشهور** التقى **مقدام بالصانعة يا بنات** فاستوقفته وسألته عن معرفته بشخص اسمه **جساس**. تفاجأ من سؤالها فارتبك قليلا لكنه ردّ في حزم مؤكدا عدم معرفته بأحد له هذا الاسم، ثم استفسر عن السبب وراء سؤالها، خاصة أنه غريب عن "الشيخ جابر". رفعت حاجبيها وقالت:

– أعرف أنك تقوم بإصلاح الضريح، لكن إحدى عميلاتي ظنت أنك تشبهه.

اضطربت ملامحه ومضى في طريقه بعد أن قال في اقتضاب:

– أنا اسمي **مقدام الطواب**.

نادت عليه فسمعها عدد من المارة:

– وهل سمعت من قبل عن **مساعد المواسي**؟

أسرع في خطوه ولم يلتفت إليها. سأل عن **عبد الرحمن** حتى وجده في غيط أبيه. راقبه عن بعد حتى انتهى عماله من مهامهم وغادروا الأرض، فتقدم نحوه وهو يقول:

– مصير الحي يتلاقى يا **عبد الرحمن!** هل تذكرني؟

اندهش **عبد الرحمن** عندما رأى صديق طفولته أمامه. تغيرت هيئته واخشن صوته لكنه تعرف إليه من نظرات عينيه، كأن خلجات الروح تكمن في حدقتيها. فتح **عبد الرحمن** ذراعيه مرحبا واحتضن صديقه بقوة، ثم أطلقه وهو يقول معاتبا:

– لا يصح أن تعود يا **جساس** إلينا دون أن تزور أخوالك!

– أنت أعلم بصعوبة وضعي. لقد جئت إلى هنا لكي أعمل مع شريكي في ترميم قبة الضريح، ولم أشأ أن يتعرف إلى أحد. لكني أردت أن ألتقي بك سرا، لأطمئن عليك وعلى العائلة، وذلك قبل أن ننتهي من أعمال البناء ونرحل عن "الشيخ جابر".

– لقد ذهبت إلى الضريح لأن **جنات**، ابنة عمي، أخبرتني بأنها رأتك عند الضريح وشكت في كونك **جساس المواسي**. هل تذكر **جنات**؟ لقد تزوجنا منذ أكثر من عام.

تفاجأ **مقدام** بالخبر الذي توقعه:

– أحس بنشوة عجيبة لمجرد وجودي بينكم هنا في بلدتي الأصلية.

– هل ستأتي معي لمقابلة أبي؟

– أفضل الاحتفاظ بهويتي سرا. الأوضاع مضطربة في أرض الجزيرة، وعرفت أن **المشاعلي** قد تضامن مع الشيخ **الطيب**، لذلك لا أريد أن تزداد الأمور تعقيدا بسبب عودتي. لقد سعدت بلقائك لكن ما أريده هو ألا تفشي سري لأحد، ولا حتى لأبيك أو **لجنات**.

تطرق الصديقان إلى ذكريات طفولتهما، ودام حديثهما حوالي الساعة ثم افترقا على أن يحتفظا بالسر بينهما، وفي نهاية اللقاء شعر **مقدام** بأن انكشاف أمره أصبح أمرا مستبعدا.

***

مبارك الفيال

وصلت الشائعات إلى مدينة "أسيوط" عن الاضطرابات التي انتشرت في "قاو الشرق" أو "قاو الكبرى" ومحيطها من القرى المجاورة، وبعد فترة وجيزة بدأت تفاصيل التمرد تتضح للجميع وظهرت كعصيان خطير وتحد عظيم لدولة الخديوي وسلطة الحكومة. فلقد أعلن الشيخ **أحمد الطيب** في "قاو الكبرى" أنه جاء إلى هذه البقعة من الأرض لكي يخلص المسلمين من الظلم والإجحاف، وأن الله بعثه إليهم لكي يقيم العدل ويعيد الحق لأهله. دعوته لاقت قبولا لدى أهالي "قاو الشرق" وأرض الجزيرة، وبدأ بعض الأهالي يتجمعون حوله ويتبعونه في تنقلاته من قرية إلى أخرى. فمن حين لآخر ترى سحابة هائلة من الغبار تتحرك فوق الطرق والجسور فتعرف

أن الشيخ **الطيب** والمخلصين من أتباعه يتحركون بين القرى.

نشط الشيخ ومريدوه في نشر أفكاره بين الأهالي الذين احتفوا ورحبوا به أينما حل. يتحلقون حوله ليستمعوا إلى خطبه ودروسه، ويتحمس الشباب والشيوخ لما يقوله، وفي كل بلدة ينزلها ينضم إليه أتباع جدد. كان من الطبيعي أن يزداد مريدوه باطراد بعد أن أخذ الخديوي الآلاف من الفلاحين للعمل بالسخرة في تطهير وحفر ترعتي "المحمودية" و"السويس"، وانتزع أعدادا كبيرة من الفلاحين من أراضيهم في موسم الزراعة حين كانت حقولهم في أشد الحاجة إليهم، خاصة أن "الشوطة" قضت على أغلب مواشيهم وأصبح عليهم إتمام أعمال الزراعة في مواعيدها عن طريق العمل اليدوي الشاق. كل ذلك زاد من إحساس الجميع بالظلم الجائر والقمع الرهيب للدولة.

بعد أن شفاه الله، اهتم **أحمد مشهور** باستضافة الشيخ **أحمد الطيب** وحرص على حسن وفادته كلما جاء إلى "الشيخ جابر". مع مرور الأيام بدأ الشيخ يتشدد في أقواله ويزداد أتباعه جرأة مما أثار حفيظة بعض الأعيان والعُمد، لكن على الرغم من تصرفات الشيخ فإن **أحمد مشهور** اعتبره وليا من أولياء الله فغض البصر عن الأقوال التي يتعنت فيها الشيخ، ولم ينتبه إلى الأساليب التي يستقوى بها أتباعه.

في أول رمضان عاوده **عبد العال العقالي** وجاء إلى قرية "الشيخ جابر" ليطمئن على صحته، لكنهما اختلفا كالعادة في أمر الشيخ **الطيب**، وثار بينهما جدلا أغضبهما رغم محاولات **عبد الرحمن مشهور** الفاشلة للتخفيف من

حدة النقاش. يومها انتقد **عبد العال** علاقة صاحبه القوية **بأحمد الطيب**، واستنكر استضافته للشيخ في داره لإقامة حلقات الذكر وكذلك إلقاء الدروس على أتباعه ومريديه. العمدة حذر **أحمد مشهور** من التورط في مثل هذه الأمور، خاصة أن مدير مديرية "أسيوط" يرتاب فيما يقوم به الشيخ وأتباعه من أفعال. لم يتوان **أحمد مشهور** عن معارضة صديقه والدفاع عن **أحمد الطيب** كولي من أولياء الله، مشيرا إلى معجزة شفائه من المرض على يد الشيخ. لم يقتنع **عبد العال** بما يقوله صاحبه وصمم على ضرورة تجنب تلك الخزعبلات والابتعاد عن الأفكار المتطرفة التي لن تجلب على قرى أرض الجزيرة والبر الشرقي كله سوى الخراب. ومع استمرار عناد صاحبه حذره **عبد العال العقالي** من الانسياق وراء هذه الهوجة، ونبهه إلى خطورة تلك الأفكار ورجاه بعدم إظهار معاداته للحكومة أو حتى التفكير في الوقوف مع الشيخ **الطيب** ضدها.

لم يحتمل **أحمد مشهور** ما قاله صديقه فاستهجن بحدة عدم اكتراث الحكومة بما حل بأهل المنطقة من مصائب، خاصة بعد أن أخذت "الشوطة" كل مواشيهم، وتدنت أسعار الغلال، وبدلا من مساعدة الفلاحين أو التخفيف عنهم اتخذت من الإجراءات الظالمة والتدابير التعسفية ما أثار سخطهم وزاد من غضبهم. هبّ العمدة **العقالي** واقفا وهو يستأذن صديقه في الذهاب مدعيا أن هناك أمورا هامة تنتظره مما يستلزم عودته السريعة إلى قريته. أحس **أحمد مشهور** بغضب ضيفه فتبسط في حديثه وشدد على صديقه لكي يبقى معه حتى يفطرا معا مع حلول المغرب، لكن العمدة

صمم على الذهاب. زاد ذلك من إحساس **أحمد مشهور** بالأسف لتباين مواقفهما من الشيخ **الطيب**، خاصة أنه شخصيا كان يعتقد أنه رجل صالح ولم يبدر منه فعل مكروه. سرح بأفكاره في التحول الذي طرأ على صاحبه منذ أن تقلد زمام العُمدية في قريته. يرى أن قلب **عبد العال** تعلق بالسلطة واستمتاعه بها صار واضحا وضوح الشمس، يخالط مديري المديريات ووجهاء المنطقة، ويفاخر بعلاقاته الوثيقة بهم والتي تعود عليه بالمنافع العديدة والمكاسب الواسعة. قام **أحمد مشهور** مع ضيفه ليرافقه إلى باب الدار ووقف بجوار ابنه **عبد الرحمن** حتى ركب **العقالي** "الحنطور" الذي استقله من "كفر علام". بقي **أحمد مشهور** في مكانه وهو يراقب الغبار الذي أثارته العربة السوداء حتى اختفت في الأفق البعيد.

عندما ركب **عبد العال العقالي** بجوار ابنه **حسين** في العربة "الحنطور" الجديدة، مال على ابنه وأمره بأن يُبقي أولاده وزوجه في "كفر علام" وحذره من زيارة "الشيخ جابر" حتى تتضح الأمور وتهدأ الأحوال. تحركت العربة وتزايد شعور العمدة بالحنق تجاه الشيخ **أحمد الطيب** الذي أخل باستقرار قرى البر الشرقي، وتسبب في إفساد علاقته بأعز أصدقائه، وهدد ما حققه هو نفسه من نجاحات وما جناه من مزايا. أدرك مدى خطورة استحواذ الشيخ **الطيب** على عقل ومشاعر **أحمد مشهور** بسبب مكانة صاحبه وسط أهله وناسه. في البداية لم يتخيل أن يكتسب ذلك الشيخ المختل هذا القدر من السطوة، لكنه يرى اليوم أن أفكاره المجنونة تجذب الناس إليه، لكنها في الوقت ذاته تدفع بالجميع إلى حافة الهوية. لقد وصل تأثيره إلى قلب

عائلته نفسها، وتسببت دعوته في جدال سقيم وخصومة بينه وبين صديقه وصهره وجد أحفاده.

عبد العال العقالي غادر "الشيخ جابر" منقبض القلب لما أبداه **أحمد مشهور** من تذمر، غير مصدق لانتقاده الشديد للحكومة. لا يدري ما الذي سيجنيه صديقه من هذه التصرفات. أيقن أن أحوال صاحبه قد تبدلت منذ أن التقى بذلك الشيخ مدّعي الورع والصلاح، ذلك المهووس الذي لا يفعل شيئا سوى إشاعة الاضطراب والسخط في نفوس الناس. تذكر لقاءه الأول مع **أحمد مشهور** في أيام شبابهما. جاء **العقالي** يومها إلى هذه البلدة ليحضر مولد "الشيخ جابر". كانت حلبة التحطيب قد انعقدت في "الرهبة" أمام الضريح، سمع **عبد العال العقالي** دقات الطبل فانسل من بين الرجال المتزاحمين إلى الحلبة حاملا عصاه، واندفع نحو حامل الطبل متصنعا الرغبة في مهاجمته، وقبل أن يدركه وقف وزعق بعلو صوته، فدق حامل الطبل إيقاعا راقصا. رفع **عبد العال** عصاه في الهواء وبدأ يتحرك في وسط دائرة السامر وهو يستعرض مهارة تحكمه في عصاه. بعد أقل من دقيقة ظهر له **أحمد مشهور** بعضلاته المفتولة ومنكبيه القويين، رآه يشمر عن ساعده وهو يكرر نفس الحركات الاستعراضية التي يقوم بها **عبد العال**. ثم تقدم نحوه ووقف في مواجهته وقد صوب نظرة تحدي إليه. تذكر دقات الطبل القوية التي جذبت الكثيرين من رواد المولد فتجمهروا حولهما وأحاطوا بدائرة السامر. منذ اللحظة الأولى أيقن **عبد العال** أنه يواجه خصما عتيا خاصة عندما سمع همسات المتفرجين تردد اسم **مشهور**. رفع كل منهما

عصاه إلى أعلى ثم تقدم **عبد العال** نحو غريمه الذي تراجع إلى الخلف. بدأ يلاحقه فزادت سرعة دورانهما حول محيط السامر، فجأة توقف **أحمد مشهور** وعاجله بخبطة قوية بشومته كادت أن تطيح بعصاه. ثم تقارعا بالعصي وكل منهما يحاول النيل من منافسه. ضربات **أحمد مشهور** كانت سريعة وتميزت بالقوة، وبالكاد تمكن **عبد العال** من صدها ومنع طرفها من إصابة رأسه أو خصره. كان يعرف أنه أمهر لاعبي التحطيب في "كفر العقال"، لكنه لم يتصور التباري مع منافس بهذه البراعة. لكي ينتصر وجب عليه استعمال الحيلة، ولذلك استمر في صد الضربات وردها كيفما اتفق، أراد أن يكسب وقتا يمكنه من معرفة نقاط ضعف غريمه ومن ثمة يستطيع تحديد الطريقة المثلى للوصول بعصاه إلى جسم منافسه أو رأسه.

أخفض **عبد العال** عصاه متظاهرا بأنه يريد ضرب خصر منافسه فانكشفت رأسه، وعندها انهال **أحمد مشهور** بشومته، لكن **عبد العال** سارع برفع عصاه كدرع أفقي وتلقى ضربة غريمه. كشف بعد ذلك رأسه عدة مرات متحديا منافسه، فعل ذلك وهو يعلم أن عصاه ستأخذ وضعها الدفاعي قبل أن تصيبه عصا خصمه. بدأ يشعر بتململ المشاهدين نتيجة لدفاعه المستمر، وازدياد تشجيعهم **لأحمد مشهور**، فتحول **عبد العال** فجأة للهجوم حيث تلقى ضربة موجهة إلى رأسه المكشوفة ثم أدار عصاه بمهارة موجها ضربة مباغتة إلى خصر خصمه، الذي تراجع إلى الخلف متفاديا إصابته بطرف الشومة. تلي ذلك توجيه عدة ضربات إلى رأس وكتف **أحمد مشهور** لكنه نجح في صدها جميعا. تتابعت المناورات البارعة من الخصمين، يدور أحدهما

ببطء فيتقدم الآخر بسرعة، يرتدان ثم يلتحمان ويتقارعان بقوة، تدور عصا كل منهما، تهاجم وتدافع، فيلف صاحبها ويقفز ويهاجم غريمه لكن رغم ذلك لا يتمكن من هزيمته. اشتدت قوة النزال وارتفعت حرارة تشجيع المتفرجين دون أن تنتهي الجولة. جرب كل منهما أبرع ما يملك من حركات ومناورات دون جدوى. الجهد الذهني والعصبي والعضلي الذي بذله **عبد العال** أتعبه، في الوقت نفسه ظهر على غريمه العنيد الإرهاق الشديد. جمع كل ما يملكه من عزم وجرب مناورة صعبة لطالما نجحت في معظم مبارياته السابقة، لكن **أحمد مشهور** تصدى لها وأفسدها في آخر لحظة. بعد فشل تلك المحاولة عرف أنه لن يتمكن من غريمه فلجأ إلى الدفاع، وركز بصره على طرف عصا خصمه في حركاتها فظهر له بطء غريمه في الانقضاض، وأحس بالوهن الذي انتاب ضرباته. في تلك اللحظة تقدم أحد الحاضرين إلى **عبد العال العقالي** طالبا عصاه ليحل محله، وحدث نفس الشيء **لأحمد مشهور**، وهكذا تستر المشاهدون على عجز أي من المتباريين عن إحراز النصر. ولم يقلل ذلك من الاعتراف ببراعتهما فلقد أطال المشاهدون التصفيق عندما تصافح المتباريان قبل خروجهما من الحلبة.

يعلم **عبد العال** جيدا بالضائقة المالية التي يمر بها **أحمد مشهور**، لكن ذلك يجب ألا يقود صاحبه إلى معارضة الحكومة وانتقادها بهذه الطريقة. لقد حاول مساعدته بقدر ما يستطيع وأقرضه ما احتاجه من مال، لكن ذلك لم يخفف من شعور صاحبه بالإحباط ولم يمنع تشوش أفكاره.

مع تزايد هجرة الفلاحين لأراضيهم، نمت مساحة أرض "العهدة"

في نطاق زمام قريته مما أتاح له استغلالها لصالحه، بصفته عمدة "كفر العقال"، فأغدقت عليه خيرا وفيرا. وعندما ضربت "الشوطة" قريته حرص **عبد العال** على مساعدة أهلها ووقف معهم لكي يتخطوا تلك الأزمة، فأكثر من إعانة المحتاجين، وساند المعوزين حتى يقوموا من كبوتهم، وشارك الفلاحين زراعتهم بعد أن أمدهم بما يلزمهم من بذور وسمح لهم باستخدام ما بقي على قيد الحياة من ماشيته لحرث وتجهيز أراضيهم. كل ذلك زاد من شعبيته وحبب أهل بلدته فيه، وأتاح له القيام بمسئوليات العُمدية بلا ممانعة تذكر أو وقوع مشاكل في زمام قريته.

ابتعدت العربة عن "الشيخ جابر" و"النطرة"، نظر العمدة إلى الجبل الشرقي وأحس بغصة في قلبه، فالأحوال تتدهور بسرعة والفتنة تتصاعد، وقد لا يمكنه رؤية صديقه حتى ينتهي هذا الأمر بسلام.

***

وكما تنبأ **عبد العال العقالي** اضطربت الأحوال بعد أيام قليلة وزادت حدة الفتن والمشاكل. لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ أتباع الشيخ **أحمد الطيب** في ارتكاب أعمال عنف، وتبع ذلك قيامهم بتحدي سلطة الحكومة تعبيرا عن سخطهم وعدم رضاهم عن الأوضاع. في يوم من أيام شهر رمضان، كان الشيخ **أحمد الطيب** ينتقل من "قاو الشرق" إلى "الشيخ جابر" حيث دعاه **المشاهرة** لقضاء عدة أيام في بلدتهم. في طريقه إلى

هناك مر الشيخ في حشد من مريديه خلال شوارع "عزبة الأقباط" فرأى **جريس الجاوي** يدخن وهو جالس أمام دكانه. وأثار هذا الفعل حنق الشيخ **أحمد الطيب** فلعن **جريس الجاوي** وأمر أتباعه بضربه. هرب النصراني واختبأ في بيته، لكن سرعان ما لحق به أتباع الشيخ ودخلوا داره ونهبوا ما فيها من بضائع ومتاع. ومع انتشار خبر تلك الحادثة جاءت أَمَة مملوكة لأحد الأقباط الموسرين، واسمه **عساف الحادي**، قابلت الشيخ وادعت أنها مسلمة ولا يرضيها البقاء في بيت سيدها النصراني. فاستدعاه الشيخ **الطيب** وخيره بين بيعها وعتقها، فامتنع النصراني وأصر على تملكها، فلم يحسن الشيخ التدبير وأخذها جبرا من **عساف الحادي** وسبه، وهمّ أتباعه بسلب أمواله، لكن الشيخ منعهم وغادر "عزبة الأقباط" ومعه الأَمَة التي وهبها فيما بعد إلى **وثاب البختياري** أحد أقرب مؤيديه من "ريانية أبو أحمد".

غضب الأقباط في "قاو الشرق" و"عزبة الأقباط" لما جرى، واشتكوا لعمدة "القاو" الذي أرسل مكتوبا إلى الشيخ **الطيب** يطالبه بتسليم الأَمَة، لكنه امتنع عن تسليمها، فتوجه إليه بعد يومين ناظر قسم "بوتيج" ومعه قوة صغيرة من القواسة، فوجد الشيخ وسط المئات من مريديه الذين استهزأوا بعساكر "الميري" ولم يعبئوا بما يريدون تنفيذه. وهدد الشيخ ناظر "بوتيج" بزيادة الأذى وأظهر عدم مبالاته بالحكومة. هذا التحدي السافر للسلطة، خاصة بعد فشل ناظر "بوتيج" في ردعه، شجع أتباع الشيخ **أحمد الطيب** على إعلان عصيانهم واختلطت اجتماعاتهم لتأدية الصلوات أو الاستماع إلى الدروس بالدعوة إلى الثورة ضد الحكومة وإلى تأسيس دولة عادلة يتساوى

فيها الناس، دولة لا ظلم فيها ولا إجحاف. هذه الدعوة التي انطلقت من "الشيخ جابر" و"قاو الشرق" ثم انتشرت في البر كله واجتمع عليها الكثيرون من أهالي قرى أرض الجزيرة من "ريانية أبو أحمد" حتى "ريانية الهريدي". في تلك المناطق لاقت أفكار الشيخ **أحمد الطيب** قبولا كبيرا من عائلات بأكملها كأولاد **سالم** و**مشهور** و**عمران** و**دويب** و**عيسى**.

في إثر استفحال الفتنة وفشل العمد والنظار المحليين في وضع حد لها، سافر **عساف الحادي** إلى "أسيوط" وقدم عريضة شكوى بشأن هذا الموضوع إلى مديرها، الذي أمر عمد ومشايخ "قاو الشرق" و"الريانية" و"الشيخ جابر" و"النواورة" بإجراء تحقيقات حول ذلك الموضوع وتقديم تقريرهم له. بعد أيام قليلة أجابوه جميعا بأن **أحمد الطيب** ولي من الأولياء ولا يمكن أن يتسبب في ضرر لأحد. هذا التقرير لم يرض مدير مديرية "أسيوط" الذي بدأ يستشعر خطورة الموقف، فقام بكتابة عريضة ثانية وأرسلها هذه المرة إلى مفتش عام الصعيد "بالقاهرة". فأرسل هذا الأخير تلغرافا يأمره بالانضمام إلى مدير مديرية "جرجا" في مداهمة القرى التي يتنقل بينها **أحمد الطيب** لكي يقبضوا عليه ثم يقومون باقتياده إلى "أسيوط".

***

بعد أن أمضى اليوم بطوله في ترسيم حدود قرية "النواورة"، قضى **محمود الغريب** ليلته في عزبة "بني سالم" ضيفا على **عثمان الأحدب**. مع كل خطوة يخطوها تتكرر نفس مشاهد الخراب التي رآها من قبل في

"قاو الشرق". ظن أنه سيعتاد مناظر البيوت المهدمة والأطلال المتفحمة، لكن وطأة ما شاهده من خراب تزايدت مع كل يوم. ملامح الدمار ونداءات الموتى صارت تقتحم مناماته في الليل وتوقظه من سباته فلا يغمض له جفن حتى تشرق الشمس. في تلك الليلة نهض من فراشه بعد أن غفا لمدة قصيرة ولم يستطع العودة مرة أخري إلى النوم، فخرج من المضيفة في محاولة للتخفيف من حدة اضطرابه. خطر له أنه قد يستفيد من المشي وسط الغيطان واستنشاق الهواء النقي. لم تردعه برودة الجو، ارتدى سترة من الصوف وخرج من مضيفة **عثمان الأحدب**. سار على الجسر المؤدي إلى "قاو الكبرى"، وفي منعطف للطريق رأى باحة واسعة تجمع فيها جمهور من الناس أمام قماشة بيضاء مشدودة بين نخلتين سامقتين. اقترب في حذر فسمع غناء **أبي العجب** وأصوات قرعه على الدربُكة، ثم بانت له خيالات العرائس التي يحركها "المخايل" وهو يسلط ضوء مصباحه عليها فتظهر ظلالها على القماشة البيضاء.

أعلن **عجيب الزمان** أنه سيحكي للحاضرين حكاية **زغبر الكلبي** وكيف قاد أنصار الشيخ **الطيب** في مواجهة عساكر حاكم "جرجا" وصنجق الأربعمائة. جلس **محمود الغريب** في ركن من الباحة بجوار نخلة وأسند ظهره إلى جذعها. حكى "المخايل" عن استعدادات تجريدة الحكومة وكيف علم بها **حماد المشاعلي** الذي أعجبه تحدي أتباع الشيخ **أحمد الطيب** ودراويشه لسلطات العُمد ومديري المديريات، فأرسل للشيخ مكتوبا أعلن فيه وقوفه معه ضد الحكومة، خاصة أن الكثيرين من رجاله هم أصلا من الفلاحين

الذين هجروا أراضيهم نتيجة لتعسف الدولة. بعث **المشاعلي** أمهر قواده **زغبر الكلبي** إلى الشيخ لكي يعرض عليه خدماته. التقى **زغبر الكلبي** مع نائب الشيخ، **وثاب البختياري**، واتفقا على التعاون في التصدي لقوة الحكومة بشرط أن يتوقف **المشاعلي** عن الإغارة على القرى المتاخمة للجبل الشرقي، في المقابل سينعم بنصيب كبير مما سيغنمونه من محاربتهم لأنصار الحكومة وما سيحصلون عليه من أموال من سيتركون قراهم من عُمد ومشايخ البلدات المتضامنين مع قوى الظلم والبغي.

سحب **عجيب الزمان** دمية لشخص بدين أطلق عليه اسم **مبارك الفيال**، وبدأ بتحريكها فظهرت ظلالها وكأنها لمراكبي يجذب شراع فلوكة تنساب بنعومة في بحر النيل. حكى "المخايل" عن الريس **مبارك** وكيف انقطع رزقه بعد أن ظهرت المراكب البخارية التي نشطت في نقل الركاب والبضائع من "القاهرة" إلى مدن الصعيد والعكس، نتيجة لذلك تعطلت المراكب الشراعية وبطل عملها فضاقت معايش أصحابها وتعسرت أحوالهم.

عندما انتشرت أفكار وتعاليم الشيخ **الطيب**، أقبل أصحاب تلك المراكب عليه وقدموا له فروض الطاعة والولاء. استغل **البختياري** رغبة الريس **مبارك** في خدمة الشيخ وأقنعه باعتراض أول باخرة تمر أمام بلدتهم حتى يستولى أتباع الشيخ **الطيب** على ما عليها من بضائع وأمتعة. بعد ذلك بأيام قليلة قاد **مبارك الفيال** عدد من المراكبية في محاولة لاعتراض مسار باخرة "بروسية"، فحاول ربانها المناورة والتملص من الفلائك التي أحاطت بمركبه، لكنها شحطت في منطقة ضحلة من النهر، عندئذ داهمتها مجموعات قادها

وثاب البختياري و**زغبر الكلبي**. أثار ذلك الهجوم المباغت ذعرا شديدا في نفوس ركاب الباخرة وتنامى قلق الشركات الأوروبية التي تقوم بتشغيل تلك الخطوط الملاحية، مما أقنع الخديوي بخطورة الموقف ودفعه إلى اتخاذ إجراءات صارمة للقضاء على **أحمد الطيب** وقمع أتباعه.

دق "الحازق" على الدربُكة فانبعثت موسيقى مارش عسكري، فظهر على قماشة العرض ظلال لشخوص تتحرك في نظام عسكري خلف شخص يمتطي جوادا مهيبا. حكى "المخايل" عن مدير "جرجا" الذي وصل إلى "قاو الغرب" على رأس عساكره في آن واحد مع **رفاعة أغا** صنجق الأربعمائة. ظل مدير "جرجا" **ورفاعة أغا** في البر الغربي منتظرين مجيء مدير مديرية "أسيوط" لمدة يومين، لكنه بدلا من الحضور بنفسه أرسل إليهما ناظر "بوتيج" على رأس قوة صغيرة. بعد طول انتظار قرر حاكم "جرجا" العبور إلى "قاو الشرق" بقواته للقبض على **أحمد الطيب**، لكن بقاء عساكر الحكومة في البر الغربي لمدة يومين أتاح لعيون الشيخ أن يتبينوا نية القوة الميري، ومنح ذلك لأتباعه ومريديه وقتا كافيا لكي يستعدوا لمقاومة قوى البغي والعدوان.

***

زغبر الكلبي

في اليوم السابق لعبور عساكر الحكومة إلى البر الشرقي، وقف **أحمد الطيب** أمام ضريح "الشيخ جابر" بعد صلاة الظهر ليخطب في مريديه. لم يعد أتباعه يقتصرون على الفقراء والمعوزين كما كان الحال في الماضي، بل انضم إليهم خيرة شباب العائلات بالإضافة إلى الكثير من شيوخها. مد الشيخ **الطيب** بصره إلى غيطان القمح الواسعة التي استطالت أعوادها وبدأت سنابلها في الخروج. شمس رحيمة أرسلت أشعتها الدافئة في تلك الظهيرة من شهر رمضان. نظر الشيخ إلى الحقول التي اكتست بالخضرة وتلفت في وجوه ذلك الحشد العظيم من مريديه فتعرف على **أحمد مشهور**، وولده **عبد الرحمن**، والمراكبي **مبارك الفيال**، وظهر في الخلف رجال

حماد المشاعلي وفي مقدمتهم ساعده الأيمن **زغبر الكلبي**، وسر سرورا بالغا عندما رأى **حسون الموزون** وزميله **مقدام الطواب**. رفع الشيخ عينيه إلى السماء وشرع في الدعاء ثم صلى على النبي وأكثر من الحوقلة والتسليم قبل أن يصمت لفترة وجيزة وهو مطرق الرأس في خشوع. قام بعد ذلك برفع ذراعه الأيمن وأعلن للناس أنه "المهدي المنتظر"، وأنه جاء إلى هذه المنطقة مخلصا لأهلها من نير العبودية، ومنقذا لهم من طغيان الطغاة واستبداد المستبدين، وانعطف في نهاية خطبته إلى الحديث عن العساكر الذين جاءوا من "جرجا" و"أسيوط" في محاولة لإلقاء القبض عليه وتأديب مريديه وأتباعه. تعالت هتافات أنصاره بالتكبير، فزمجرت ريح هبت عليهم من البر الغربي، أكمل الشيخ **الطيب** خطبته واعدا إياهم بأن الله سيمدهم بملائكة يحاربون في صفوفهم وينصرونهم على قوى الطاغوت التي تتربص بهم وتبغي القضاء عليهم. كما أكد لهم أن رصاصات أعدائه لن تصيبهم بسوء وأن عساكر الحكومة لن يتمكنوا منه مهما فعلوا. هلل أتباعه وكبروا، ثم ساروا خلفه حتى وصل إلى نخلة شامخة اصفرت شواشيها، ففرش الشيخ عباءته تحتها وتمدد فوق فرشته ليستريح.

***

ابتعد **زغبر** مع رفاقه عن مئات الدراويش والتابعين المحيطين بالنخلة التي هجع الشيخ تحتها. هبط إلى الوادي وأسرع إلى "قاو الشرق" ليستطلع

ضفة النهر ويحدد مواقع عساكر مدير "جرجا" وجنود **رفاعة أغا**. غافل **مقدام** صاحبه **حسون** وانطلق في أثر **زغبر** ورجاله مع عدد من الشباب المتحمسين من أولاد **دويب**. لم يكن دافعه مقاومة الحكومة أو حماية الشيخ، بل تحكمت فيه رغبته الشديدة في الانتقام من **المشاعلي**. أدرك أن **زغبر الكلبي** هو السبيل إلى تحقيق غرضه. لو تقرب إلى **زغبر** واكتسب ثقته فسيفتح له الطريق إلى دائرة الرجال المقربين من **المشاعلي**.

في كل مناسبة حرص **حسون الموزون** على إبقاء **مقدام** بعيدا عن الشيخ **الطيب** ومريديه، وكثيرا ما نصحه بالابتعاد عن أتباعه وعدم الاختلاط بهم. يكرر عليه أنهما جاءا إلى هذه البلدة فقط لإصلاح قبة ضريح "الشيخ جابر"، ويجب أن يعودا إلى "التناغة" فور الانتهاء من عملهما. **مقدام** تجاهل نصائحه، وتعقب رجال **زغبر الكلبي** حتى لحق بهم على مشارف "قاو الشرق". وهناك عرف **زغبر** أن عساكر الحكومة تعسكر بين "قاو الغرب" و"مشطا"، مما يدل على أنهم سيعبرون في اتجاه عزبة "أولاد سالم" حيث تواترت الشائعات بأن **عثمان الأحدب** سيسهل لعساكر مديرية "جرجا" العبور إلى الضفة الشرقية. يعرف **زغبر الكلبي** أن أتباع الشيخ لا يمتلكون السلاح اللازم للدفاع عن أنفسهم، حتى رفاقه من رجال **المشاعلي** ليس لديهم إلا القليل من البنادق القديمة والقربينات البدائية، ولا قبل لهم بمواجهة عساكر المديرية بأسلحتهم الحديثة وبنادقهم السريعة. أدرك أن الأمل الوحيد لهزيمة هذه القوة النظامية هو اللجوء إلى الخديعة للاستيلاء على بنادقهم وذخيرتهم، لذلك أرسل **زغبر** أحد رجاله إلى **عسيلي المعاجيني**

طالبا منه إعداد أكبر كمية ممكنة من كور "المعجون" والحضور بأسرع ما يمكن ليقابله بالقرب من ضفة النهر عند الجسر الذي يربط عزبة "بني سالم" بالنيل. في نفس الوقت بعث برجل آخر إلى **مبارك الفيال** ليبلغه رسالة هامة.

عندما وصل **زغبر الكلبي** إلى جسر البحر طلب من رجاله أن يتوزعوا حتى لا يثيروا ريبة أحد، على أن يجتمعوا في نفس المكان بعد غروب الشمس. راقبهم حتى اختفوا ثم جلس مع **مداح المناديلي** على ضفة النيل. اقترب منهما **مقدام** مع شابين من أولاد **دويب**، ألقوا السلام على **زغبر الكلبي** و**مداح المناديلي** وأقعوا قبالتهما ثم سارعوا بالتعبير عن لهفتهم للاشتراك في قتال عساكر الحكومة. سخر **زغبر** من حماسهم الزائد وتساءل عن خبراتهم السابقة في القتال. رفع أحدهم شومة غليظة معلنا أنه لم يُهزم قط في بطولات التحطيب. قال **مداح** متهكما:

– وكيف ستنفعك الشومة عندما يصوب العساكر نيران بنادقهم عليك؟

أطرق الشاب ولم يرد، لكن **زغبر الكلبي** عقب في صرامة:

– لا بأس سيمكنني الاستفادة منكم، لكن ليس في مواجهة نيران البنادق. سأجد لكم مهاما خاصة تناسبكم.

التفت إلى **مقدام** وأضاف متسائلا:

– وأنت، ألست البناء الذي يقوم بترميم قبة الضريح؟ لا أعتقد أنك تصلح للعمليات القتالية، لكن يمكننا استغلالك في تشييد الدفاعات

والمتاريس. ابق معنا في الصفوف الخلفية لكن لا تغامر بالتقدم إلى الخطوط الأمامية عندما يشتد القتال. أنت أثمن من أن نفقدك.

بعد صلاة العصر جاء **مبارك الفيال** فانفرد به **زغبر الكلبي** واتفقا على خطة للعمل، حيث سيعبر **زغبر** في مركب **الفيال** بعد غروب الشمس مع عدد من رجاله ليستطلعوا معسكري **رفاعة أغا** وحاكم "جرجا". قبل المغرب وصل **عسال المعاجيني** وأخرج من جرابه كيسا به أكثر من مائة كرة "معجون" أعدها من أفضل أنواع القنّب الهندي المخلوط بجوزة الطيب والحرمل. أعطى الكيس **لزغبر** مفاخرا بمفعولها الأكيد، ومشيرا إلى أن **حماد المشاعلي** لن يغفر له فقدان هذه الكمية من "المعجون" لو لم يحسن استخدامها **زغبر** أو أضاعها دون جدوى.

بعد صلاة العشاء مباشرة عبر **زغبر الكلبي** مع عدد قليل من رجاله إلى البر الغربي. كان **مقدام** مصرا على الذهاب معهم لكن **زغبر** رفض بسبب خطورة المهمة. تقابل **زغبر** مع **مبارك الفيال** في المكان المتفق عليه، ثم ركب مع رجاله في المركب التي أرخى **مبارك** شراعها حتى لا يلاحظه أحد ونقلهم إلى الضفة المقابلة قبل أن يبزغ القمر. في البر الغربي تسلل رجال **زغبر** إلى حدود المعسكر حيث شاهدوا بأنفسهم استعدادات الجنود للعبور إلى البر الشرقي مع طلوع الشمس وبعد انقشاع الضباب عن صفحة النهر. مع أول ضوء للنهار بدأ الجنود بالعبور حاملين معهم ذخيرتهم وأمتعتهم، خمس مراكب نقلت أكثر من مائتي جندي بالتناوب بين ضفتي النهر. ثم استغرقت المراكب وقتا طويلا لنقل الخيل والبغال والمؤن. راقبهم **زغبر** من

مسافة آمنة على البر الغربي، بينما قام بنفس المهمة **مداح المناديلي** على الضفة المقابلة. ارتاح **المناديلي** للثقة الكاملة التي تحلى به قادة الحملة وعساكرها، فلقد ملأتهم عجرفة غشيمة حتى أنهم لم يرسلوا مفرزة متقدمة لاستطلاع الطريق أمامهم. انتهوا من الانتقال إلى البر الشرقي بعد العصر، ثم أقاموا معسكرين، الأصغر بالقرب من ضفة النهر لحراسة المراكب والآخر في منتصف الطريق إلى عزبة "أولاد سالم".

قبل بزوغ القمر رجع **زغبر** مع رجاله إلى البر الشرقي حيث التقى **بمداح المناديلي**. لمح **مقدام** مع أولاد **دويب** بين رجاله، لكنه تغاضى عن الأمر. تحدث **زغبر** إلى **مداح** على انفراد لمدة ساعة اتفقا خلالها على خطة الهجوم وحددا المواقع التي سيكمن عندها رجالهما. أمرهم **زغبر** بالتجمع وسط عيدان البوص ونباتات الحلفاء التي تغطي باطن الجسر بالقرب من مياه النيل. أوصاهم كذلك بالتزام الصمت التام حتى يطلق نداءً متفقا عليه: "يا ستار!".

ترك **زغبر** رجاله تحت إمرة **المناديلي** وركب قاربا صغيرا أعده له **مبارك الفيال**. جلس وحده في القارب وجدف في اتجاه الغرب حتى وصل إلى منتصف المسافة إلى البر الآخر، ثم أدار مقدمة القارب وعاد إلى الضفة الشرقية لكي يعتقد الجنود أنه قادم من "قاو الغرب". هناك في منتصف النهر ساد هدوء غريب لا يخترقه سوى نعيق الضفادع وأصوات صراصير الليل. صفير مستمر لا ينقطع، ونعيق يمتزج برقرقة المياه المنسابة حول ألواح القارب الخشبي. هذه الأصوات المألوفة استحضرت ظلال ذكرياته

من أيام عمله في أرضه التي هجرها بعد أن مات أبوه وتراكمت عليه الديون فلم يعد قادرا على تسديد ضرائبها. لم يجد **زغبر** من يقف معه سوى **حماد المشاعلي** الذي ساعده وأخذه تحت رعايته. ترك امرأته وولده في "عرب المطير" وطلع الجبل ضمن رجال **المشاعلي**. في البداية لم يعلم **زغبر** ماذا يجب عليه عمله، لكن يوما بعد يوم أثبت مهاراته التي لم تتجل في قوته البدنية أو قدراته القتالية بل في دهائه ومكره. ومع مرور الوقت صار **المشاعلي** يعتمد عليه في التخطيط لكل عملياته مما أشعر **زغبر** بفخر لم يحسه من قبل، وها هو يجد نفسه أمام هذه المهمة الخطيرة التي يعرف أنه سينجزها بنجاح. لا بد من الاستيلاء على بنادق العساكر وذخيرتهم حتى يتمكن أهل الجزيرة وأتباع الشيخ **الطيب** من التصدي لتجريدة الحكومة وهزيمتها.

اقترب **زغبر** بقاربه من الشط، يكاد يسمع دقات قلبه العنيفة وهو يقترب من خيام المعسكر. الجنود تجمعوا حول نار أضاء لهيبها وجوههم، أنصت إلى أصواتهم التي كانت تعلو من آن لآخر ويتخللها ضحكات صاخبة تعكس توتر أصحابها. ربط قاربه وارتقى جسر البحر، تقدم نحو الجنود مبديا عدم اكتراثه وألقى عليهم السلام، فقفزوا من أماكنهم وأسرعوا بتصويب بنادقهم نحوه. رفع ذراعيه في الهواء وصاح بأعلى صوته:

– أنا صديق لكم، لقد جئت إليكم بما يخفف عنكم ويعينكم على قتال هؤلاء الرعاع والأوباش من أنصار الشيخ **الطيب**.

تبادلوا نظرات الريبة ولم يعرفوا بماذا يجيبونه، تقدم أحدهم إليه وضربه بدبشك بندقيته في صدره، فوقع **زغبر** على ظهره. وانقض عليه رفاقه

وثبتوه مكانه ثم أوثقوا ذراعيه خلف ظهره. لطمه أحدهم بكف قوية وركله آخر ببيادة ثقيلة. أومباشي ضخم الجثة انتزع جراب **زغبر** وأمر أحد جنوده بالذهاب إلى المعسكر الآخر بالقرب من عزبة "بني سالم" لكي يخبر الملازم بأمر هذا الدخيل. جندي آخر فتش الجراب ثم أخرج الكيس الذي يحتوي على كور "المعجون". أمسك إحداها ورفعها إلى أنفه ثم اقترب من الأومباشي وهمس في أذنه موضحا له طبيعة ما وجده في الجراب.

صاح الأومباشي في **زغبر** المسجي أمامه على الأرض:

- يا ملعون، أنت تتاجر في مخدر "المعجون"!

علت ضحكات العساكر المتحلقين حوله وظهرت على وجوههم علامات الراحة. الأومباشي نادى على العسكري الذي أرسله سلفا إلى عزبة "بني سالم" وطلب منه الرجوع لعدم وجود داع لمضايقة قائده بهذا الأمر. عاد الجنود إلى التحلق حول النار للتدفئة، ودارت عليهم أكواب القهوة التي قاموا بإعدادها على راكية من جمرات الفروع المحترقة. بدأ **زغبر** برواية القصص التي تسخر من أهل "قاو الغرب" وتحكي عن مجموعة من شبابهم الذين عبروا النهر سباحة وسرقوا من "النواورة" كمية كبيرة من أقماع السكر ووضعوها في صندوق خشبي ثم سبحوا عائدين إلى قريتهم فلما وصلوا إلى الغرب اكتشفوا أن الأقماع قد ذابت كلها في مياه النيل.

ضحك الجنود وهم يسبون أهل "القاو" شرقها وغربها، وينعتونهم بالغباء وقلة الفهم، ثم انعطف بهم الحديث إلى صب اللعنات على الشيخ **الطيب** الذي جمع حوله كل هؤلاء المختلين عقليا. طالت نقاشات الجنود

وامتدت أحاديثهم إلى ساعة متأخرة فحل بهم التعب. بعد أن نام الأومباشي تسلل أحدهم وكبش من الجراب كبشة من كور "المعجون". وضع إحداها في فمه ومضغها ثم شرب كوبا من القهوة، مرت دقائق قليلة انخرط بعدها في ضحك متواصل لا ينقطع، أي تعليق من زملائه كان يثير قهقهته فينطرح على ظهره من الضحك. انتبه إليه رفاقه الذين تكالبوا عليه وأخذوا منه بقية كور "المعجون". القمر تسلق أبراج السماء بينما استمر العساكر في تبادل النكات فتصاعدت الضحكات، وغلبهم اللغو والهذر، وغاب عن الوعي من غاب، وتاه في ملكوته من تاه. عندما تأكد **زغبر الكلبي** من انذهال العساكر وانسطالهم، صرخ بعلو صوته:

– يا ستار! يا ستار!

خرج **مداح المناديلي** ومن معه من مخابئهم وانطلقوا نحو خيام المعسكر، ضوء القمر أضاء طريقهم فأصبح بإمكانهم رؤية الجنود المسطولين. انقضوا بالشوم والسكاكين على العساكر المنذهلين فانتهوا منهم قبل أن يتمكن أحد من إطلاق رصاصة واحدة. أحد الجنود سحب سيفه وحاول طعن **زغبر** الممدد على الأرض، لكن **مقدام** انهال عليه بشومة غليظة، ثم انحنى فوق **زغبر** وفك وثاقه. في وقت قصير تمّ السيطرة على المعسكر، قُتل من قُتل من العساكر، ومن لم يمت جردهم رجال **زغبر الكلبي** من أسلحتهم وخلعوا عنهم ثيابهم ثم قيدوهم ورموهم على الشاطئ في بطن جسر البحر. حصر **مداح المناديلي** البنادق والطبنجات التي استولوا عليها فوجد تحت يده أكثر من أربعين قطعة سلاح ومعها كميات كبيرة من الذخيرة.

حملوا غنائمهم ووضعوها في مركبين أبحروا بهما شمالا إلى "قاو الشرق" وهناك وجدوا عددا من أنصار الشيخ في انتظارهم.

تناولوا سحورهم على عجل ثم حملوا الأسلحة والذخائر على ظهور البغال والحمير، وأكملوا مسيرتهم نحو "الشيخ جابر" حيث وجدوا الشيخ **أحمد الطيب** ودراويشه متجمعين مع **حماد المشاعلي** وزمرته فوق مستطيل من الأرض محصور بين الجبل الشرقي والتل الذي يقبع فوقه دير "هرمينا السايح". حشد عظيم من الشباب والشيوخ المنتشرين فوق سفح الجبل وصخوره، والممسكين بفؤوسهم وعصيهم وسيوفهم وقربيناتهم. في نور الشمس المشرقة تناقضت ألوان جلاليبهم الداكنة مع أصفر الصحراء المشوب بالحمرة، ومن موقعهم المرتفع كان يمكنهم رؤية الغيوم الكثيفة التي تجمعت فوق الأفق الغربي، بينما ظهر أمامهم الوادي الأخضر بسنابله الحبلى بالأرزاق. ارتفعت رؤوس الرجال واشرأبت الأعناق وامتدت الأبصار حتى ضفاف النهر، ملأت الرهبة قلوبهم وهم يراقبون كل ما يتحرك فوق أرض الجزيرة التي يفصلها عنهم ترعة واسعة شكلت عائقا أخيرا أمام عساكر الحكومة قبل أن ترتفع الأرض تدريجيا إلى البقعة التي يرابطون عندها. هذا المستطيل الضيق بين أسوار الدير والجبل كان يمثل موقعا نموذجيًا للتصدي لقوة الحكومة المدربة جيدا، كما أنه يتيح للمتمردين فرصة استدراج عساكر التجريدة إلى أعماق الدروب الصحراوية تحت صخور الجبل الشرقي، حيث سيتمكن الفلاحون من مهاجمة الجنود والاشتباك معهم عن قرب مستخدمين فؤوسهم وأسلحتهم البيضاء.

في الساعات الأولى من النهار امتدّ ظل الشيخ **أحمد الطيب** الذي تنقل بين مناصريه بطلعته المهيبة، يخطب فيهم ويحثهم على القتال، ويبشرهم بنصر مبين يحررهم من المعاناة والقهر والاستبداد، ومن حين لآخر كانت نبرات صوته تعلو وهو يزف إليهم أنباء عالم قادم ستسوده الكرامة والعدالة والحرية. ظهر بجواره **المشاعلي** بين زمرة من رجاله يتحدث إليهم بحدة ويوضح لهم أفضل الأماكن التي يجب أن يتحصنوا بها وتلك التي تصلح ككمائن للإيقاع بعساكر الحكومة. رغم تماسكه بدا عليه القلق بسبب خطورة المواجهة المرتقبة مع مئات الجنود المسلحين جيدا، وارتفع صوت زعيقه كلما أفصح أحد رجاله عن جزعه بسبب عدم خبرة الفلاحين القتالية أو بخصوص ضعف تسليحهم ونقص ذخيرتهم. ولذلك فرح **المشاعلي** فرحا بالغا بغنيمة **زغبر** من البنادق الحديثة والذخائر. احتضنه بحرارة وأثنى عليه ثم أعلن أنهم الآن يستطيعون، بما حصلوا عليه من سلاح، هزيمة أي حملة عسكرية مهما كانت قوتها. ما قاله **المشاعلي** شجع رجاله ورفع من معنوياتهم فلقد اقتنعوا بقدرتهم على هزيمة تجريدة الحكومة واغتنام ما يحملونه معهم من أسلحة ومؤن.

تقدم الليل وشارف على الانتهاء، فأطفأ "المخايل" مصباحه ولملم عرائسه، فتعالت هتافات مشاهدي خيال الظل تطالبه بالاستمرار في تقديم عرضه. لكن توسلاتهم لم تفلح في إقناع **عجيب الزمان** باستكمال الحكاية. اتجه نحو ستارة العرض وفك رباطها، بينما استمر "الحازق" في دق الدربُكة وهو

يعلن للناس أن عرض الغد سيتناول وقائع هجمة مدير "جرجا" وعساكره على **أحمد الطيب** وأنصاره، وما وقع في تلك المعركة من أحداث.

***

شبل السباعي

أمضى **شبل السباعي** النهار بطوله مع **محمود الغريب** بين أنقاض "النواورة". يدق الأوتاد ويقيس المسافات بينها ثم يرسم حدودها على صفحات دفتره. يتنقل كالمنوم بين الخرائب ويتصور حيوات الناس الذين اقتلعتهم الغارة من هذا المكان، منهم من قضى نحبه ومنهم من يعيش في منفاه بالقرب من "دمياط". تخطر بباله الظلال التي تتسلل بين الإدراك والكينونة، ويتفكر في كيف يتعتم السطح الصقيل عندما يسقط عليه الخيال، بينما تمرق الظلال مع الأنوار بلا عائق من خلال الأسطح الشفيفة. يدرك أن الظل هو انعدام الانعكاس، وفي ذهنه يعرف أن الخيال هو انحباس

الضوء. لكن مهما رأى من خراب حوله فلقد اكتشف أن الحدود الفاصلة بين النور والظلمة ترسم أوجه الحقيقة.

تأمل **شبل السباعي** الخرائب المحيطة به واقتنع بأن الظلال تسكن هنا بين المشاعر الجياشة والأفعال المتلاطمة. كان يستشعر أطياف من رحلوا عن هذا المكان فتصيبه اختلاجاتهم بالغم والاكتئاب. كل ما يرجوه الآن هو الانتهاء بسرعة من مهمته حتى يعود إلى "القاهرة" في أقرب فرصة. لا يريد الاستماع إلى حواديث الغارة والمذبحة التي محت من الوجود حيوات من عاشوا في هذه القرى المخربة. يتخيل ضجيج الأفراح ونحيب المآتم وجلبة المجادلات ورعشة الصبوات، يكاد أن يسمع هسهساتها بين الأنقاض لكنه يسد أذنيه وينشغل بعمله.

عاتب **شبل السباعي** رئيسه بسبب استيقاظه من النوم متأخرا. لقد خططا للانتهاء في ذلك اليوم من تعيين مساحة قرية "النواورة" وترسيم حدودها، حتى يتمكنا من الانتقال إلى "قاو الشرق" وغيرها من القرى المجاورة. يسحب **شبل** الشريط ليقيس المسافة بين وتدين وهو يقول:

– الناس هنا يشيرون إلى كرم **همام بك** الذي منحه الخديوي كفالة "النطرة" و"الشيخ جابر"، وحسن ضيافة **عبد العال العقالي** عمدة "كفر العقال" والذي حصل على كفالة "الريانية".

– لا تنكر أن **عثمان الأحدب** أحسن وفادتنا خلال الأيام الماضية.

هز **شبل** رأسه نافيا ما قاله صاحبه ورفع منكبيه بلا مبالاة ثم تابع حديثه:

– ربما أحسن وفادتنا، لكننا لم نذق "الزفر" منذ أن استضافنا. كل يوم عدس وفول مع "المش" الذي أحرق قلوبنا.

– أنت لا يملأ عينيك إلا اللحم الأبيض.

ضحك **شبل** من تلميح صاحبه إلى زيارته لبيت **عواد الشرماط** فور وصولهما إلى "أسيوط" قادمين من "القاهرة" وأجاب في تهكم:

– لماذا تتطرق إلى هذا الأمر الآن؟ ما أنت رفضت المجيء معي. مستحيل أن تتخيل حلاوة النسوان اللائي رأيتهن عند **عواد الشرماط**. تشكيلة هائلة من أجمل بنات البلد وأروع الإفرنجيات.

– لقد أضعت نصف أجرك على تلك الليلة.

– وأنا على أتم الاستعداد لتضييع نصف عمري من أجلهن! لماذا لا نذهب إلى "أسيوط" في إجازة قصيرة بعد الانتهاء من رفع حدود "قاو الشرق" وقبل أن ننتقل بعملنا إلى "الريانية" و"الشيخ جابر".

– لماذا لا تستقر يا **شبل** وتعقل، بدلا من تضييع نقودك وأوقاتك على اللذات الزائلة؟

– أنت نفسك لم تستقر بعد. العالم الذي نعيشه لا يشجع على الزواج وخلفة العيال. ألا ترى بعينيك الخراب الذي حل بهذه المنطقة؟ قد يحدث نفس الشيء لأي منا.

أجابه **محمود الغريب**:

– في ساعة متأخرة من ليلة أمس شاهدت عرضا لخيال الظل يحكي تفاصيل وقائع الغارة ويروي الأحداث التي أدت إلى تخريب هذه القرى.

– لكن خيال الظل لا يمكنه تصوير الحقيقة كاملة بكل تفاصيلها وأصدائها.

– لكنه أحسن من اللاشيء، ونصف الحقيقة أفضل من الجهل التام.

– لكن الخيال وحده لن يخلصنا من القهر وخيبة الأمل.

– ربما كنت محقا، رغم ذلك سنجد الظلال دائما في الحيز الذي يفصل بين الرغبة في الوجود ونشوة الوجود نفسه.

كفّ **شبل** عن دق أحد الأوتاد واقترب من **محمود الغريب** وهو يقول:

– لا أفهم ما تعنيه!

– تتواجد الظلال بين الرغبة في الفعل وتأثير ذلك الفعل، أو ما نسميه ردة الفعل. في هذه المساحة غالبا ما تضيع التفاصيل وتتضارب الأفكار.

– كلامك غريب، وكأنك تتحدث عن نوع من السحر.

أردف **محمود الغريب** بعد تردد:

– لكن عرض الخيال الذي شاهدته بالأمس ولَّدَ أحاسيسا غريبة في نفسي وخلق في ذهني عالما متجانسا ملموسا.

عارضه **شبل السباعي**:

– لكن ذلك العالم غير موجود في الحقيقة! إنه عالم منتهي ولا يسكن إلا في أذهان عدد قليل من الأفراد. وهل يمكنك أن تخبرني من أين أتى **عجيب الزمان** بأسماء شخوصه؟

– إن عرض الصور ومنحها أسماءها، يرسم إطار وجودها، فنستطيع

بذلك لمسها والإحساس بكينونتها. هذا الفعل المدهش يؤدي إلى اغتيال الخوف الكامن في القلوب، مهما كانت بشاعة المسميات.

– لا أفهم ما تقصده.

أضاف **محمود الغريب** في حماس:

– عرض صور الخيال هو المعجزة التي لا يفهمها الكثيرون، فالنظرة المختلسة إلى الفظائع الكامنة وراء جدار الخوف لها مفعول السحر، فهي تنتزع الضعف من النفوس.

– لا زلت تتحدث عن عالم سحري لا وجود له.

– أنت لم تفهم شيئا مما قلت! إن **عجيب الزمان** يروض العالم من خلال أطياف شخوصه ليجعل منها كائنات حاضرة في عالمها الخاص، كائنات لا يحدها زمان أو مكان. لقد حررها بفعله هذا من التردي في هاوية النسيان.

قال **شبل السباعي** متهكما:

– من أين جئت بهذه الأفكار؟ لم أعرف من قبل شيئا عن ولعك بالفلسفة.

رفع **محمود** كتفيه وأجاب:

– لا بأس! يمكننا أن نحصر كلامنا في مواضيع أخرى مثل بيت **عواد الشرماط** وجمال بناته.

أجابه **شبل السباعي**:

– لقد أحببت دوما العمل معك. ولكي أكون صادقا معك، فأنا لم أقدرك

حتى هذه اللحظة حق قدرك رغم اشتغالي معك لسنوات عديدة.

– شكرا على صراحتك. لكن ألا ترى أن الشيء الوحيد الواضح مثل نور الشمس هو أن ثورة الفلاحين تلك لم تقض عليها غارة **فاضل باشا**.

– ماذا تعني؟

رد **محمود الغريب** في هدوء:

– أعتقد أننا سنرى في المستقبل ثورات عديدة للفلاحين وفي كل مرة ستبطش بها غارة غاشمة. هذه الدورة الجهنمية لن تتوقف حتى يستقيم ميزان العدل.

– لقد قلب **عجيب الزمان** كيانك رأسا على عقب. لماذا لا أرافقك الليلة لكي أشاهد معك عرض الخيال؟ لو رأيته بنفسي قد أستوعب بعضا مما تحاول قوله. أنا أيضا لم أعد قادرا على النوم مبكرا وأظل مستيقظا حتى ساعة متأخرة من الليل.

– وعملنا هذا؟

رد **شبل السباعي** بلا اكتراث:

– ولا يهمك يا باشمهندس! سننجز أعمال المساحة المطلوبة منا على أكمل وجه، كل ما يلزمنا هو المزيد من الأيام للانتهاء من رفع حدود القرى المدمرة، ولا أظن أن أحدا سيأبه بما نفعله لو تأخرنا قليلا.

أكملا يوما من العمل الشاق، ثم توجها إلى "بني سالم" ووصلا إلى هناك قبل غروب الشمس. تناولا عشاءهما واستراحا قليلا في مضيفة **عثمان الأحدب**، وقبل أن ينتصف الليل طرق **محمود الغريب** باب غرفة

مساعده. سارا معا حتى وصلا إلى نفس الساحة التي قدم فيها **عجيب الزمان** عرضه في الليلة الفائتة. غلالة رقيقة من الضباب غطت المكان الخالي من المشاهدين. على الرغم من وجود القماشة البيضاء المربوطة بين النخلتين لم يسمعا صوت غناء "الحازق" أو حكي "المخايل"، لكنهما وجدا خلف شاشة العرض مصباحا يشع نورا يعكس خيالات الشخوص الخشبية المثبتة أمامه.

لم يجدا أثرا "للمخايل"، لا هو ولا مساعده. تسائل **شبل السباعي** عما جرى لعرض خيال الظل وأين ذهب مشاهدوه؟ بحثا عن **عجيب الزمان** فوجداه جالسا مع **أبي العجب** في مكمن أسفل الجسر وأمامهما "راكية" نار يسويان على جمراتها القهوة المغلية في إبريق معدني. رفع **عجيب الزمان** ذراعه وأشار إلى **محمود الغريب** وهو يقول:

– أخيرا جاء أحد الزبائن.

عقب **أبو العجب**:

– لا يكفي حضور اثنين من المشاهدين لتقديم عرضنا، لا بد أن ننتظر حتى يحضر المزيد من الزبائن.

مدّ **عجيب الزمان** يده بكوب قهوة إلى **محمود الغريب** وهو يقول:

– لكن العرض يجب أن يستمر، ولا يمكن أن نتوقف ولو حتى لليلة واحدة، ثم أن هذا الغريب هو زبوني المفضل.

نظر إليه **أبو العجب** في اندهاش وأردف:

– لكن هل سيفهم زبونك المفضل أن الحاكم لا يمكنه أن يُخرس معارضيه بالقمع والمنع؟

صفق **عجيب الزمان** كفيه وصاح في صوت جهوري:

– سيفهم بالطبع أن الحاكم لا يمكنه تحقيق الاستقرار والأمان بالذبح والنفي!

أشار "المخايل" **لمحمود الغريب** و**شبل السباعي** ليجلسا قبالته وبدأ يحكي لهما ما جرى لحاكم "جرجا" وصنجق الأربعمائة **رفاعة أغا** وعساكر التجريدة عندما صعدوا إلى "الشيخ جابر" لكي يلقوا القبض على الشيخ **أحمد الطيب**.

***

مداح المناديلي

تحسس **زغبر الكلبي** الحجاب الذي صنعه له **شمعون المشعوذ** قبل أن يطرده الشيخ **الطيب** من أرض الجزيرة. نظر إلى الغيوم المتجمعة فوق رؤوس الفلاحين الذين رتبهم على شاكلة عساكر الجهادية وعين لهم أعلاما ورايات تميز سراياهم المختلفة. يعرف جيدا إن السماء لو أمطرت فإن الطرق الموحلة ستبطئ من تقدم العساكر الميري مما سيتيح لأنصار **أحمد الطيب** فرصة تجهيز دفاعاتهم وتمنحهم الوقت اللازم لتدريب وتهيئة المتطوعين عديمي الخبرة بالقتال. اصطفت كل سرية أمام سر عسكر اختاره **زغبر** آخذا في الاعتبار قوته البدنية وعصبيته ومكانة عائلته الاجتماعية. أخيرا ظهر

حماد المشاعلي وتفقد سرايا الفلاحين الذين انتظموا أمامه ممسكين بعصيهم وفؤوسهم. انفرد بعد ذلك **بزغبر الكلبي** ليقررا معا خطة التصدي لعساكر الحكومة، ثم بدأ بتوزيع المتطوعين على المواقع التي سيقومون بالدفاع عنها في أرجاء مستطيل الأرض الذي يفصل بين أسوار الدير وصخور الجبل الشرقي. عهد **المشاعلي** بقيادة تلك السرايا إلى **مداح المناديلي**. وفي الوقت نفسه طلب **زغبر** من **مقدام** البدء في إنشاء المتاريس وإقامة السواتر التي سيتحصن خلفها المقاتلون.

أقبل **مقدام** عليهم فرأى **حماد المشاعلي** واقفا على مسافة قريبة منه. تأججت مشاعره وغلت في صدره أحقاده القديمة. لقد ابتسم له القدر وأصبح قاب قوسين أو أدنى من قاتل أبيه. حاول بكل ما لديه من عزم أن يضبط مشاعره المضطربة، وأحس بتشنج عضلاته وبارتجاف أطرافه، لطالما اشتاق في مخيلته لتلك الفرصة، ولطالما تاق إلى اللحظة التي سيضرب فيها رأس **المشاعلي** بمطرقة أو يغرز سكينا في قلبه. مشي **مقدام** بجوار **زغبر الكلبي** الذي ربت كتفه بمودة وأمره بتحصين أماكن معينة، ثم نادى على رجال السرايا المختلفة لكي يقوموا بتجميع الحجارة في النقاط التي حددها. أفراد كل سرية انشغلوا بجلب الحجارة إلى المواقع التي سيقومون بالدفاع عنها. طلب **مقدام** كميات من الحجر الجيري والطفلي لكي يستعملها في إعداد ما يحتاجه من ملاط، ثم بدأ بالتنقل بين المواقع المختلفة وهو يرسل طرفه إلى **حماد المشاعلي** كلما سنحت له الفرصة. ينظر إليه ويقلب في رأسه احتمالات الانفراد به ويتصور كيفية مهاجمته.

انحنى **مقدام** فوق كومة من الأحجار ليضع أساسا لجدار يمكن للمقاتلين أن يتحصنوا خلفه. انشغل في عمله فلم يتنبه إلى **حسون الموزون** الذي وقف خلفه ثم أمسك بكتفه وعاتبه على اختفائه ليوم وليلة كاملين. ذكره بوعده لخاله **عبد المنعم** بعدم الانسياق وراء ما يدعو إليه الشيخ **أحمد الطيب** من أفكار، ونبهه إلى أنهما قد جاءا إلى "الشيخ جابر" فقط لترميم الضريح وليس لمناصرة الشيخ **الطيب** وأعوانه أو لمحاربة "الحكومة". أدار **مقدام** رأسه نحو صاحبه ولم يرد عليه، ثم أكمل ما كان يقوم به من أعمال. جذبه **حسون** من ساعده، كأنه يحاول إيقاظه من غفلته، فتملص **مقدام** من قبضته وهب واقفا بينما كان الغضب يتطاير من عينيه:

– وهل يمكننا أن ننكر الواقع الذي نعيش همومه؟ ظلم عظيم سيقع على أهالي هذه الناحية وتريدني أن أقف مكتوف الأيدي.

– لكن هذه ليست معركتك.

– وما أدراك ما هي معركتي؟

شدد **حسون** على مخارج ألفاظه وهو يقول:

– ماذا جرى لك، لم أعد أفهمك!

– لماذا لا تشترك معي في مساعدة هؤلاء الناس؟ عساكر المديرية عبروا إلى البر الشرقي وهم الآن يخيمون بالقرب من عزبة "أولاد سالم". لقد ذهبت إلى هناك ورأيتهم بعيني.

اندهش **حسون** لما قاله صاحبه. كيف يتهور **مقدام** إلى هذا الحد فيذهب إلى "بني سالم" لاستطلاع مواقع عساكر الحكومة. اعتقد أن هذه الأحداث

المشحونة بالمشاعر قد أطاحت بعقل **مقدام**. لقد وعد **حسون** معلمه **عبد المنعم مهران** بحماية ابن أخته من تأثير الشيخ **الطيب** ويبدو أنه قد فشل في ذلك الأمر. زاد خوفه من أن هذه الظروف الصعبة قد تضر **بمقدام** وتؤدي به إلى الهلاك، وزاد ذلك من إحساس **حسون** بالمسئولية فصمم على عدم التخلي عن صاحبه. أدرك أنه في هذه اللحظة لن يستطيع التأثير على **مقدام**، فأقعى بجوار صاحبه وشاركه العمل في إنشاء مجموعة من المتاريس المتتالية التي تسمح للمدافعين بالانسحاب التدريجي نحو الجبل، والتي تضيق في الوقت ذاته من اتساع مستطيل الأرض الذي يفصل بين سور الدير وصخور الجبل.

رنا **مقدام** ببصره نحو الجبل فرأى فريقا من رجال **المشاعلي** يحملون الأسلحة النارية، وعلى رأسهم **زغبر الكلبي**. كانوا يتسلقون سفح الجبل صاعدين نحو المغارات التي تتناثر بين صخوره كأفواه مظلمة. **مداح المناديلي** اقترب من **مقدام** ليتابع أعمال بناء المتاريس، وطلب منه إنشاء ساتر محصن جيدا في نقطة متوسطة بين الدير والجبل لكي يحتمي به مع مجموعة من القواسة الذين يجيدون استخدام البنادق والقربينات. مع تقدم النهار أتمّ **مقدام** الكثير من الإنشاءات الدفاعية وانتهى **المشاعلي** من توزيع المقاتلين عليها، فساد الهدوء خاصة بعد أن تأكد للجميع أن تجريدة الحكومة لم تتحرك من المعسكر المقام في تخوم عزبة "أولاد سالم". ارتاح المقاتلون وافترشوا الأرض حول النقاط المحددة لهم منتظرين أذان المغرب.

أحمد مشهور تحصن بموقع قريب من سور الدير، جلس هناك ممسكا

بقربينته، أحاط به إخوانه وأولاد عمومته، بينما هبط ابنه **عبد الرحمن** نحو الوادي لاستطلاع الجسر المؤدي إلى "عزبة الأقباط". في الجانب المقابل بين الصخور المتراكمة على جرف الجبل كمن أولاد **دويب** وخلفهم أولاد **عمران**. جاءوا حاملين الشوم والفؤوس وعددا قليلا من البنادق القديمة. **حماد المشاعلي** حذرهم من الدخول في مواجهة مباشرة مع العساكر، وأمرهم بالاكتفاء بمناوشتهم مع التنقل السريع بين المواقع المحصنة حتى يستدرجوهم إلى مسافة قريبة تسمح بالانقضاض عليهم والاشتباك معهم بالفؤوس والسيوف والسكاكين.

الأخبار وصلتهم أن أمطارا غزيرة تنهمر على الضفة الغربية من النيل وأنها تهطل منذ الصباح على معسكر حاكم "جرجا" وصنجق الأربعمائة بالقرب من عزبة "أولاد سالم"، الطرق الموحلة أبقتهم هناك وعطلت تقدمهم نحو الربوة التي تحصن فوقها أنصار الشيخ **الطيب**. دراويش الشيخ ومريدوه اعتبروا امتناع المطر عن السقوط فوق الجبل الشرقي من كرامات الشيخ وعلامة أخرى تدل على مباركة السماء لما يدعو إليه وما يقوم به.

مع مرور الوقت ازدادت أعداد الفارين من "النواورة" و"قاو الشرق" الذين أخذوا يتوافدون على "الشيخ جابر" و"النطرة"، يحكون عن مهاجمة عساكر الحكومة لبيوتهم بحثا عن الشيخ **الطيب** وأنصاره، وكذلك إلقاء القبض على عدد كبير من الرجال لاستجوابهم. تلك الأنباء أفزعت أهالي القرى المجاورة فنزحوا بعيدا عن الطريق المتوقع لتقدم العسكر والذي يخترق "عزبة الأقباط" ويمر بالقنطرة المقامة عبر ترعة "القاو" عند "الصليبة".

عشرات النساء والشيوخ والأطفال هجروا بيوت العزبة ولاذوا بدير "هرمينا السايح".

أصبحت الربوة التي رابط فوقها الشيخ **الطيب** بؤرة جاذبة لكل سكان القرى والعزب المجاورة. منهم من جاء ليدافع عن الشيخ وعن دعوته ومنهم من أتى ليحتمي به. خلال الأيام السابقة على هجوم العساكر كانت طوابير طويلة للنساء تفد على مواقعهم قبل المغرب، يظهرن متشحات بالسواد وهن يحملن السلال والمقاطف والجرار والبلاليص. يأتين من القرى الشمالية سيرا بمحاذاة الجبل ليجلبن الطعام لرجالهن، ثم يقفلن عائدات إلى قراهن. وفي أوقات أخرى كان الرهبان يخرجون من الدير حاملين جرار الماء ليملئوا الأزيار التي توزعت بين مجموعات المقاتلين. ساد التكافل بين دراويش الشيخ والمرابطين معهم من رجال **المشاعلي**. في كل ليلة بعد العشاء كان الشيخ يؤم الناس في صلاة القيام التي كان يطيل فيها ويكثر بعدها من الدعاء والابتهال.

***

في صباح اليوم الثالث بعد عبور التجريدة إلى شرق النيل، استيقظ الناس على صوت ناقوس الدير يدق بقوة معلنا ظهور طلائع العسكر على مشارف "عزبة الأقباط". طوابير الجنود تتحرك بانتظام وتحيط بها غلالة بيضاء من الضباب الذي يحتضن الأرض وتعلو فوقه تيجان النخيل.

انطلق **حماد المشاعلي** على الطريق الهابط نحو الوادي على رأس فرقة من أتباعه، وهناك تمركزوا في محيط القنطرة المؤدية إلى "عزبة الأقباط". عند وصول الطوابير المتقدمة للتجريدة إلى الضفة الغربية للترعة جرى تبادل متقطع للنيران بين رجال **المشاعلي** والعساكر. من فوق الربوة راقب الرجال ما يجري في الوادي تحت أبصارهم، واتخذوا مواقعهم منتظرين هجوم العساكر. يعرفون أن تبادل النيران عبر الترعة عند "عزبة الأقباط" لن يستمر طويلا وأن الغرض منه هو تعطيل تقدم قوات الحكومة لأطول فترة ممكنة. الشيخ **أحمد الطيب** أحسن استغلال هذه الفسحة من الوقت لتحفيز أنصاره وتشجيعهم. مر على كل المواقع وسط تهليل مريديه، ثم صعد أعلى صخرة ضخمة ورفع يديه إلى السماء داعيا ربه أن يتحقق لأتباعه النصر الذي وعدهم إياه.

مداح المناديلي اتخذ موقعه عند الساتر الذي شيده **مقدام** في منتصف خط المواجهة. جلس هناك مع عشرين رجلا من أفضل القواسة الذين تمترسوا في قلب الدفاعات والتحصينات. لم يستمر تبادل النيران حول القنطرة لمدة طويلة. في النهاية انسحب رجال **المشاعلي** نحو الجبل الشرقي، وانضموا إلى **زغبر الكلبي**. عندما توقف تبادل النيران عند القنطرة أدرك أنصار الشيخ **الطيب** أن هجوم العساكر أصبح وشيكا. رفع **أحمد مشهور** قربينته واتخذ وضع الاستعداد. كان يدرك أن هذا اليوم قد يكون الأخير في حياته، فتذكر يوم أعطاه أبوه تلك القربينة، واسترجع سعادته البالغة بسبب حصوله على سلاح أبيه. تفكر في ابنه الواقف بالقرب منه مع **مقدام**

الطواب وتخيل اليوم الذي سيمرر فيه قطعة السلاح تلك إليه.

الرصاصة الأولى أطلقها **مداح المناديلي** في اتجاه طابور من الجنود المتقدمين نحو موقعه المحصن جيدا، وقبل أن يرد العساكر عليه كان القواسة المرابطين بجواره يمطرون قوات الحكومة بالرصاص. علت هتافات المدافعين عندما سقط أول العساكر أسفل الربوة. لكن سرعان ما اتخذ المهاجمون أوضاعهم القتالية ثم انهمر الرصاص بغزارة على متاريس الفلاحين. مهارة الجنود في التصويب وسرعة تعمير بنادقهم سمحت لهم بإطلاق كمية هائلة من النيران أجبرت المدافعين على الاختباء خلف سواترهم. ساعد ذلك على تقدم القوات الحكومية دون مقاومة تذكر. أدرك **المناديلي** صعوبة الموقف وشعر بضرورة تعطيل طوابير العساكر التي أصبحت تبعد عن دفاعاتهم بمسافة تقل عن المائة ياردة. في حركة شجاعة قاد رجاله في إطلاق موجات متتالية من النيران على الطوابير المتقدمة. كان الواحد منهم يظهر من خلف الساتر الحجري للحظة خاطفة ثم يطلق نيران بندقيته قبل أن يحتمي مرة أخرى خلف المتراس. احتد إطلاق النيران وبدأ الرجال يتساقطون على الجانبين، نجح **مداح المناديلي** في إبطاء تقدم طوابير المهاجمين نحو القلب ونيرانه دفعتهم إلى اليسار في اتجاه سفح الجبل. تحمس **المناديلي** عندما رأى أن خطته تحقق النجاح المنشود. أكثر من إطلاق نيران بندقيته حتى أصابته طلقة في كتفه. سقط خلف المتراس، لكنه كتم نزيف الدماء بخرقة اقتطعها من ذيل جلبابه، ثم قام محتميا بالسور الحجري وواصل ضرب النار.

عندما رآه رجاله يقف على قدميه بعد إصابته زاد حماسهم وركزوا

ضربهم في اتجاه الصفوف الأمامية التي بدأت تميل في تقدمها نحو الجبل بسبب قلة النيران القادمة من تلك الناحية. الشيخ **الطيب** صعد مرة أخرى فوق نفس الصخرة غير مبال بالرصاص المنهمر عليه وبدأ يحث رجاله على الثبات في صوت جهوري:

- أنا الطيب أحمد ومشهور اسمي، وجدى المعظم نبينا المختار، باسم اللطيف قطعت اللطيف ودست المخيف وشربت البحار.

عندما اقترب الطابور الأمامي لعساكر المديرية من الدرج الصاعد إلى مغارات الجبل، ظهر لهم أولاد **دويب** من وراء المتاريس وهاجموهم بالفؤوس والمناجل، ساد هياج عظيم بين صفوف المحاربين، وتصاعد الغبار واشتبك الطرفان في قتال مرير. المفاجأة مكنت أولاد **دويب** من إصابة عدد كبير من الجنود قبل أن ينتبه بقية زملائهم إلى هذا الهجوم غير المتوقع، وعندما بدأوا بتصويب أسلحتهم في اتجاههم كان أولاد **دويب** قد انسحبوا مع جرحاهم واحتموا بالحواجز الحجرية.

على الجانب الآخر فقد **المناديلي** عددا من مقاتليه، وأخذ الجنود يركزون نيرانهم على موقعه حتى أصابته رصاصة ثانية في ذراعه الأيسر. حاول أحد رجاله أن يسحبه نحو الحواجز الخلفية لكنه رفض واستمر في إطلاق النيران. رغم استماتته في الدفاع عن موقعه إلا أنه فشل في منع تقدم طوابير المهاجمين الذين اجتاحوا المتاريس التي دافع أولاد **دويب** عنها بشجاعة، لكنهم اضطروا إلى التراجع نحو الاستحكامات الخلفية التي يحتمي بها أولاد **عمران**. شجع ذلك قوات الحكومة فاندفعت في محاولة للحاق بالمتراجعين

نحو الجبل مما أتاح **لمداح المناديلي** فرصة الانسحاب من موقعه في اتجاه سور الدير حيث يتمركز أولاد **مشهور**، لكن العساكر القادمين من الخلف ركزوا نيرانهم على مجموعته فأصيب بالمزيد من الرصاصات، وعندما وصل أخيرا إلى سور الدير اعتقد الجميع أنه سيموت حتما متأثرا بجروحه. إلا أن **مقدام** حمله على كتفه وتسلل إلى بوابة الدير. وهناك استمر في قرع الباب بقوة حتى فتحه له أحد الرهبان.

انسحاب **مداح المناديلي** ورجاله أغرى العساكر بالتقدم على عجل لاحتلال قلب المواقع الأمامية للثوار متصورين أنهم سينجحون في كسر دفاعات المتمردين ثم مطاردتهم وتطويق فلولهم. عندما توغلوا خلف الفلاحين المنسحبين إلى مسافة تزيد عن مائتي متر خرج **زغبر الكلبي** ورجاله من المغارات أعلى الجبل وبدأوا في إطلاق نيران كثيفة على العساكر المحاطين بالمتاريس المقامة أسفل أسوار الدير حيث تحصن **المشاهرة** والحواجز الخلفية التي اختبأ خلفها مئات الفلاحين بفؤوسهم. ارتفع صوت الشيخ **الطيب** وهو يشجع أنصاره منشدا:

– بِاسم عزيز وقاهر، اقهر عدوي يا رب بكيد الفجار، وهاجت بحارا من الشرق لاحت، كموج البحار الطباق الأخيار.

ثم نده الشيخ على الجبلين، فانتفض الجبل الشرقي وكذلك التل الذي يقوم عليه الدير، وانهمرت الحجارة المشتعلة على رؤوس العساكر المحاصرين من ثلاثة جوانب. ثم هجم عليهم الفلاحون بالفؤوس في موجات متتالية كل واحدة أعتى مما سبقتها. في هذه اللحظة أدرك العساكر حرج موقفهم

وحاولوا الانسحاب، فعمّ الاضطراب صفوفهم وتخبطوا في تحركاتهم بعد أن سقط الكثيرون منهم مخضبين بالدماء. سهل ذلك للفلاحين الانقضاض عليهم، فدار قتال ضار وسالت دماء غزيرة فوق السترات البيضاء للجنود والجلاليب المتربة للفلاحين. شبح الهزيمة اتضح لضّباط التجريدة فهربوا تاركين عساكرهم وسط المعمعة. أولاد **مشهور** هاجموا ميمنة العساكر ونزلوا عليهم ضربا بالشوم وطعنا بالسكاكين، بينما شتت أولاد **دويب** ومعهم أولاد **عمران** صفوف الجنود على الجانب الآخر وتعقبوهم بين صخور الجبل. وعندما حاول العساكر الانسحاب في اتجاه "عزبة الأقباط" تصيدهم **زغبر الكلبي** ورجاله ببنادقهم من فوق الجبل. قبل أن ينتصف النهار انهزمت تجريدة الحكومة، وفر مدير "جرجا" لينفد بجلده هو و**رفاعة أغا**. طارد الفلاحون العساكر الذين ألقوا أسلحتهم وانطلقوا محاولين الإفلات من مصيرهم البائس. أنصار **أحمد الطيب** قتلوا الكثيرين من العساكر وجردوا الذين استسلموا لهم من ملابسهم ثم أخلوا سبيلهم. في نهاية اليوم غنموا أكثر من مائة بندقية وكميات هائلة من الملابس والبيادات والمعدات.

عندما دلف **مقدام** من بوابة الدير حاملا **مداح المناديلي** فوق كتفه، قاده الراهب الشاب إلى شادر لأدوات الزراعة، تركه هناك وذهب لينادي أحد الرهبان ممن لهم دراية بعلاج المرضى. عندما حضر الراهب **يوأنس المداوي** وجد أن **المناديلي** قد أصيب بأكثر من عشر رصاصات في ذراعه الأيسر ورجليه وكتفه الأيمن، ومنها ثلاث طلقات استقرت في فكه. **يوأنس** نقل **المناديلي** إلى فراش نظيف وطلب من الراهب الشاب أن يحضر أدواته الجراحية وأن يغلي إناء من الماء. استخرج **يوأنس** الرصاصات العشر

كلها وداوى جراح **المناديلي** لساعات طويلة امتدت من وقت الظهيرة إلى منتصف الليل. لم يفارقه الراهب الشاب وبقي **مقدام** معهما ليعاونهما قدر استطاعته. بعد صلاة العشاء حضر **زغبر الكلبي** ومعه عدد من رجال **المشاعلي**. أبدى **زغبر** تعجبه من أن **مداح** لا زال على قيد الحياة، ثم شكر **مقدام** على شجاعته وربت على كتفه مهنئا إياه على الحواجز والمتاريس التي أتقن بناءها.

انتشرت أنباء الهزيمة المنكرة التي لحقت بتجريدة الحكومة، وردد الناس وصف المعجزات التي قام بها الشيخ **الطيب** وكيف أنه وقف فوق الصخرة يخطب في المقاتلين بينما كانت رصاصات العساكر تنهمر عليه من كل اتجاه دون أن تصيبه. أما حكاية **مداح المناديلي** ورصاصاته العشر فلقد تحولت إلى أسطورة خاصة بعد أن بدأ يتعافى للشفاء. زادت هذه الروايات من إيمان الناس بكرامات الشيخ **أحمد الطيب** فأخذ الأتباع والمناصرون يتوافدون عليه من كافة القرى والنجوع. الخفراء الميري في "قاو الكبرى" و"النواورة" و"الشيخ جابر" و"ريانية أبو أحمد" سلموا أسلحتهم إلى أنصار الشيخ **الطيب** وأعلنوا ولاءهم له. وفي الوقت ذاته هرب العُمد والأعيان ومشايخ البلاد الذين ناصروا الحكومة خوفا من انتقام الناس منهم ومن أسرهم، وسادت حالة من النشوة بين الأهالي وأحس الفلاحون أنهم قادرون على إقامة نظام عادل يعيد الخير لأصحابه بلا عُمد فاسدين أو مرابين جشعين أو حكومة مستبدة يصرف أمورها حرامية ونهابين.

***

عسيلي المعاجيني

انتقل **محمود الغريب** مع **شبل السباعي** إلى "قاو الشرق" لكي يقوما بنفس أعمال القياس بعد أن انتهيا من ترسيم حدود "النواورة" ورفع مساحتها. سجل **الغريب** أماكن الأوتاد التي دقها **شبل**، وحددا معا العلامات المساحية التي قاما بوضعها في محيط القرية. تم تدوين المسافات بين تلك العلامات، ورسم **الغريب** "كروكي" لأماكنها في دفاتره. وفرّ **عثمان الأحدب** "كرتة" خاصة لتأخذهما من مضيفته في عزبة "أولاد سالم" إلى "قاو الشرق" في الصباح ثم تعيدهما في آخر النهار. كما أنه عين لهما أربعة خفراء ليحرسوهما أثناء تأدية عملهما.

كل ليلة بعد صلاة العشاء كان **محمود الغريب** يخرج مع مساعده ليشاهدا

عرض **عجيب الزمان**. لكن في نهاية يوم شاق شعر **محمود** بإرهاق شديد ففضل البقاء في المضيفة ليستريح. **شبل السباعي** طغى عليه الفضول ورغم إحساسه بالتعب أراد معرفة ماذا جرى بعد أن انهزمت تجريدة مدير "جرجا" وصنجق الأربعمائة على يد الشيخ **الطيب** ومن معه من الفلاحين، فخرج بعد العشاء قاصدا الفسحة التي يقدم عندها **عجيب الزمان** عروضه. عندما وصل إلى هناك لم يجد قماشة العرض مشدودة بين النخلتين، ولم يظهر له ضوء المصباح، بحث عن المشاهدين لكنه لم يعثر على أي منهم. لوهلة تخيل أنه ضل طريقه وذهب إلى مكان آخر. تشكك **شبل** في الأمر وكاد أن يعود من حيث أتى عندما سمع حسا خافتا يناديه. فزع بسبب ظلمة المكان وتذكر حكايات النداهة التي يغرم بها من يرافقها من الخفراء. يحذرونه دوما من النداهة وينصحونه بعدم الرد عليها لو سمعها تنادي عليه. مشي بخطى ثابتة في اتجاه الظلمة الداكنة لشجرة جميز هائلة تقع على قارعة الطريق، ثم همّ في سيره حتى وصل إليها واختبأ خلف جذعها العريض مدققا بصره في الظلمات المحيطة به لعله يتبين حقيقة الصوت الذي ناداه. انحنى قليلا إلى الأمام ليتحقق من الخيالات التي تتلاعب أمام عينيه عندما أحس بخيزرانة تنهال على ظهره. صرخ بعلو صوته وتعثر وهو يحاول الفرار فوقع على الأرض. سمع أحدهم يقهقه بصوت عال، وقبل أن يقوم من سقطته ظهر له خيالا رافعا الخيزرانة في يده وهو يقول:

– ماذا أتى بك إلى هذه البقعة المحروسة؟ أنت إنس ولا جن؟

أجاب **شبل** بلجلجة:

– أرجوك لا تأذني!

وصل إلى أذنيه صوت ضحكات مكتومة قبل أن يسمع **أبا العجب** يقول في تهكم:

– وأهلك أسموك **شبل السباعي!** حرام عليهم، أنت طلعت "بسة".

تملك الغضب من **شبل** فبدأ يلعنه بكل ما يخطر على باله من أقذع الشتائم. ثم هبّ واقفا يريد أن يلطم **أبا العجب** الذي تلاشى خياله بين طيات الظلال الداكنة. تلفت **شبل** حوله محاولا تحديد مكانه فلم يره. فجأة سمع صوته آتيا من الجانب الآخر للجسر:

– أنا أردت فقط مداعبتك. **عجيب الزمان** مرهق الليلة ولن يقدم عرضه، لكن بدلا من تقديم العرض يمكنني أن أريك **عسيلي المعاجيني**.

– هل تقصد **عسيلي المعاجيني** كما في حكاية **زغبر الكلبي**؟

اقترب **أبو العجب** منه فبان خياله من بين الظلال. وقف على مسافة قريبة منه وقال في نبرة واثقة:

– نعم، سأريك **عسيلي المعاجيني** بشحمه ولحمه. وقد يحضر **مقدام** أيضا لو عندك مفهومية.

– أرجوك، كفّ عن المزاح. وأين سنجد **عسيلي المعاجيني** في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

– سنجده في برج الحمام طبعا! تعال معي، سنقضي ليلة لن تنساها.

سار **شبل** مع **أبي العجب** في اتجاه "قاو الشرق" وقبل أن يصلا إلى أطرافها الجنوبية انعطفا في طريق ترابي ضيق متقاطع مع الجسر الرئيسي،

وبعد مسيرة قصيرة توقفا أمام برج من أبراج الحمام التي لم تنهدم. دفع **أبو العجب** بابًا خشبيًا صغيرًا ودلف منه إلى داخل البرج، تبعه **شبل** وفي ضوء مصباح معلق على الحائط رأى **عسيلي المعاجيني** جالسا على دكة خشبية ينفث دخان الجوزة من منخاره. صوت هديل الحمام تردد في أرجاء البرج مع دخولهما كأنه يعلن وصولهما للحاضرين. في ركن بعيد، جلس ثلاثة أشخاص على حصيرة يتهامسون ببلادة ويتبادلون شدّ الأنفاس. أشار **عسيلي** "للحازق" وصاحبه بالجلوس جواره على الدكة، وبادر بسؤال **أبي العجب** عن معلمه، فأجابه:

– **عجيب الزمان** بعافية الليلة ففضل أن يرتاح قليلا.

عقب **عسيلي** قائلا:

– والله سنفتقده الليلة! هو رجل كامل ويعرف الأصول مثل جميع الذعار والأوباش.

قالها ولم يتمالك نفسه من الضحك فانطلق في سلسلة من القهقهات أيقظت الحمائم التي حلقت فوق رؤوسهم.

كرس عسيلي الحجارة الفخار، فرص الدخان فوقها وعمرها بقطع من "الحشيشة" ثم ثبت إحداها في الجوزة وناولها **لأبي العجب** وهو يسأله:

– وهذا الأفندي، هل جاء معك أم أنه تاه في العتمة وأولاد الحلال دلوه علينا؟

رد **أبو العجب**:

– ما انت عارف، لم يبق أولاد حلال ولا أولاد حرام في الناحية كلها؟

فاضل باشا شالهم من هنا ورماهم بحري. أما صاحبي هذا فهو **شبل السباعي** مساعد المساح الذي يقوم برفع حدود القرى المخربة وتحديد مساحاتها.

– **شبل وسباعي** مرة واحدة، أهلا ومرحبا به في برج الحظ والسلطنة.

أبو العجب ناول **شبل** الجوزة وهو يشير إلى **عسيلي المعاجيني**:

– المعلم **عسيلي** من المتمردين القليلين الذين لم يقبض عليهم **فاضل باشا**.

رد **عسيلي المعاجيني**:

– أنت صحيح ابن أصول مثل معلمك الذي صنع لي "شخيصة" يلعبها في عروض الخيال حين يروي حكايتي مع **زغبر الكلبي** وكيف خدعنا عساكر التجريدة وسرقنا سلاحهم.

قال **أبو العجب** في نبرة ساخرة:

– لو طالك **فاضل باشا** كان خزوقك مثل باقي العصاة.

مازحه **المعاجيني**:

– ربنا يكرمك يا بعيد، ويقعدوك على خزوق يفري مصارينك!

– الله يسامحك يا عم **عسيلي**.

– لا تنس أنني ابن كار معتبر، يحتفي به كل الناس ولا يستغنى عنه مدير أو فقير. أما **عجيب الزمان** فوضعه مختلف.

– أصل عمر الشقي بقي! ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

علق **عسيلي المعاجيني** قائلا:

– لكن أي من العروض يقدمها معلمك هذه الأيام؟ لم يبق أحد أصلا في هذه الناحية.

اعترض **أبو العجب**:

– العزب والنجوع الصغيرة ما زال يقطنها بعض السكان.

– بصراحة، لا يوجد مخلوق في هذه الناحية يريد سماع حكاية الغارة.

– لكن معلمي أدمن حكاية الشيخ **أحمد الطيب**، ولا يكف عن الكلام عن أحلام الناس بتحقيق العدل وما قام به الثوار من أعمال بطولية.

– لكن تلك الحكاية لن تؤكل عيش. الناس في هذه الأيام إما هيابة أو زهقانة ولذلك لن يحضر جمهور لمشاهدة مثل هذه العروض. ومن يحضر قد يغضبه ما يقوله **عجيب الزمان** عن الغارة.

عقب **أبو العجب**:

– كلما طلبت من معلمي أن يجد لنا رواية ظريفة تخفف من هموم الناس، يسبني ويلعن العجب وأبا العجب وجدود العجب.

– أصل الناس زهقت خلاص من الثورة وسيرتها. سينفضون من حولكما ولن يحضر أحد لمشاهدة عروضكما

– لكن **عجيب الزمان** لا يهتم بكلامي، وكلما حدثته في ذلك الأمر يجيبني في ثقة بأنه لا يوجد فرق إذا قدمنا عروضنا أو منعناها.

ناول **شبل السباعي** الجوزة **لأبي العجب** وعلق قائلا:

– أنا شخصيا استمتعت بعروض الخيال التي شاهدتها.

سأله **عسيلي المعاجيني**:

– وما جدوى أن يقدما عروضا لا يشاهدها إلا شخص واحد أو اثنان؟

قاطعه **أبو العجب** وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان:

– لا أدري، لكن معلمي يصر على الإبقاء على حكاية الثورة في أذهان الناس، حتى بعد أن فشلت تلك الثورة ولم تحقق أهدافها. لقد استحوذت عليه فكرة أننا لن نشهد ثورة أخرى مثلها.

علق **شبل السباعي**:

– عنده حق، فالناس لا يثورون كل يوم.

أشار **عسيلي المعاجيني** بأصابعه إلى عينيه وهو يقول:

– أنا شاهدت أحداث الثورة بعينيّ واشتركت فيها. لقد كانت حالة فريدة ومن بختنا أننا عشنا وشوفنا تلك الأيام.

أضاف **أبو العجب**:

– بعضنا، والحمد لله، لم يكن طرفا في انتفاضة الفلاحين تلك ولم يشاركهم ثورتهم. لذلك يعتقد **عجيب الزمان** أن الحكومة لن تلاحق الأعيار والذعار من أمثالنا.

قال **عسيلي**:

– صدقت في مسألة الأعيار والذعار! لكن إذا كانت الحكومة لا تحفل بأمثالكما، فلماذا سينصت الناس إليك وإلى معلمك؟

– سينصتون لأن للحكاية سحرها الخاص، ولا يتقن الحكي إلا من يتمتع مثلنا بحرية "التهجيص".

قهقه **عسيلي** حتى دمعت عيناه ثم أردف قائلا:

– ما كل هذا الكلام المرتب؟ يبدو أن "حشيشة" اليوم مضروبة.

صفق **أبو العجب** كفيه وأضاف:

– يبدو أنكما متشوقان لسماع إحدى حكايات الغارة. لو شئتما سأحكي لكما عن معجزة **أبي القطط**.

صمت لوهلة وهو يشد نفسين من الجوزة ثم قال **لعسيلي**:

– لماذا لا تنادي على زبائنك الآخرين لينضموا إلينا ويستمعون لحكايتي؟ هم مسطولون تماما ولن تخربشهم كلماتي.

***

أبو القطط

انتهت المعركة وانهزمت تجريدة حاكم "جرجا" وصنجق الأربعمائة. دفن الأهالي موتاهم وعالجوا مصابيهم وجرحاهم، الجنازات كانت مختصرة، فصامت النساء عن العديد ولم تلبس أي منهن العَبَك ورفضن أن تضعن خلقاتهن مقلوبة كما هي العادة. فتحت البيوت أبوابها فلم يُسمع لعوائل الموتى نحيب وتبادل الأهالي العزاء في رفق بعد دفن من فقدوا من أبناء، ثم انصرفوا إلى الاهتمام بأحوالهم كأن من مضوا من أحبائهم ما زالوا يعيشون بينهم.

حالة من التضامن والتكافل شملت الجميع وتناسى الأهالي خلافاتهم ونزاعاتهم، وتوجهوا إلى العبادة والصلاة. الشيخ **الطيب** كان يطوف بالقرى

والنجوع ليؤم صلاة القيام كل ليلة في قرية مختلفة، يتبعه ركب هائل من المريدين الذين حرصوا على التنقل معه من مكان إلى مكان، فاعتاد الناس ذلك المشهد المهيب لمئات الدراويش والتابعين وهم يحملون المشاعل والشوم خلف شيخهم في رحلاته الليلية من قرية إلى أخرى.

خلال تلك الفترة لم يدخر **يوأنس المداوي** جهدا، فدأب على المرور على بيوت الجرحى والمصابين، يعالجهم ويطببهم. **مقدام الطواب** لازمه في زياراته بعد أن تجذرت في نفسه معجزة إغاثة **مداح المناديلي** وإنقاذه من الموت. أقنعته تلك التجربة الفريدة بأنه أداة لإنفاذ إرادة الرب. وسيطرت عليه رغبة جامحة في مساعدة الجرحى الآخرين، وكأنه بذلك يستعيد نفس الأحاسيس التي شعر بها بعد نجاة **المناديلي** وتعافيه. أثناء تنقلاته مع **يوأنس المداوي** قاوم **مقدام** رغبته الملحة لتذكير الراهب بزياراته في طفولته للدير حين كان يصعد إلى هناك مع أبيه. سعد بوجوده قريبا من شخص يحمل إليه روائح أبيه، لكنه قنع بصفاء تلك المشاعر الجميلة فقرر الاحتفاظ بأحاسيسه لنفسه وعدم الجهر بها.

جولات **مقدام** مع الراهب بدلت أحواله فكفّ عن إصلاح جدار الضريح وترميم القبة. كان يعود في المساء إلى الغرفة التي يقطنها فلا يكل **حسون** من معاتبته والاستفسار عن أسباب غيابه، لكن **مقدام** أمسك عن الكلام واستمر في المراوغة فلم يفصح لصاحبه عن مشاعره أو أفكاره. على الرغم من هذا التباعد اعتقد **حسون** أنه يفهم أسباب معاناة صديقه، فأفسح له مجالا من الحرية وفضل أن يعامله برفق وألا يضغط عليه. لكنه،

في الوقت نفسه، حرص على معرفة تفاصيل جولات **مقدام**، حتى يتأكد من عدم تورطه في أي عمل خطير. واطمأن عندما تأكد من ملازمة صاحبه **ليوأنس المداوي**، وزاد من ارتياحه عدم تواصل **مقدام** مع رجال **حماد المشاعلي** وكذلك ابتعاده عن **زغبر الكلبي**.

استقر الشيخ **الطيب** في "قاو الكبرى" بسبب موقعها المركزي بين القرى الثائرة، وبدأ الناس يتوافدون عليه لكي يجهروا له بالطاعة والولاء. أول عمل شرع فيه **أحمد الطيب** كان اختيار العُمد الجدد للقرى الثائرة لكي يحلوا محل من هجرها من عُمد الحكومة. **وثاب البختياري**، الساعد الأيمن **لأحمد الطيب**، أصبح عمدة "الريانية". الغرض من ذلك كان التصدي لنفوذ **عبد العال العقالي** الذي منع أهل "كفر العقال" والنجوع المحيطة بها من الانضمام إلى الثوار. الحاج **عبد الكريم مشهور** وقع عليه الاختيار كعمدة "للشيخ جابر". كما تولى **إبراهيم أبو سالم** عمودية "النواورة"، وذلك لرصد المواقف المتأرجحة **لعثمان الأحدب** من عزبة "أولاد سالم"، والذي تقلبت حالاته في الآونة الأخيرة بين معاداة الحكومة حينا ومناصرتها في كثير من الأحيان.

زادت أعداد الناس الذين نزحوا إلى "قاو الكبرى" لينضموا إلى الشيخ **الطيب**. معظمهم جاء من القرى التي رفضت المشاركة في الثورة ونكل عُمدها بكل من جاهر بتأييد الشيخ **الطيب**. ازدحمت الطرقات والساحات بالنازحين وأصبح واجبا على أهالي القرى والنجوع المتمردة أن يوفروا لهم الملجأ والطعام. طلب الشيخ من **البختياري**، قبل أن يغادر "القاو"

لتقلد مسؤولياته الجديدة في "الريانية"، أن يضع نظاما عادلا لتوزيع المؤن والأطعمة على الأهالي والنازحين. فكانت أولى قراراته هي اتباع القدوة الحسنة لرسول الله في أن يؤاخي بين النازحين والثوار. صرح بتلك الفكرة إلى الشيخ **الطيب** الذي أمر أتباعه بأن يتكفل كل بيت من بيوت القرى الثائرة بعدد من النازحين، وترك **لناتو السوداني** كاتب "وابور الطحين" المملوك **للبختياري** تنسيق هذه العملية المعقدة.

في نفس الوقت أدرك **وثاب البختياري** أهمية تخزين أكبر كمية ممكنة من الأغذية والغلال، متوقعا أن تقوم الحكومة بمحاصرتهم وقطع المؤن عنهم، فقام بجرد كميات الحبوب الموجودة في كل الحواصل والأجران. استنتج من ذلك أن الزيادة الكبيرة في أعداد النازحين ستستنزف ما لديهم من أغذية، قبل انقضاء شهر رمضان، إذا لم يقوموا بشراء المزيد من المؤن. قام **البختياري** بجمع التبرعات من القادرين من الأهالي وأرسل إلى **مبارك الفيال** لكي يتولى شراء ونقل المواد الغذائية التي يحتاجها من قرى البر الغربي أو تلك الواقعة جنوبي جزيرة "الهريدية". انضم إليه ثلاثة مراكبية آخرين كان من بينهم **أبو القطط** الصياد الأعمى الذي نشط في جلب المؤن من "قاو الغرب" الواقعة على الضفة المقابلة من النهر.

في الأيام الأولى كان من السهل الحصول على المواد المطلوبة لكن سرعان ما امتنع أهالي البر الغربي من بيع أي شيء **للفيال** ورفاقه. مع مرور الأيام شحت المؤن وقلت المواد الغذائية في "قاو الشرق" والقرى المحيطة بها. قام الشيخ **الطيب** بتوزيع الأطعمة بنفسه وطلب من العُمد

الجدد الالتزام بعدالة تقسيم الأغذية. رغم نقص الطعام استمر التكافل بين الناس، وحفزت المشاعر الدينية السائدة في شهر رمضان الناس على الصبر في مواجهة الشدائد. الشيخ **الطيب** وعد الثوار من أتباعه بأنه سيقودهم، بعد عيد الفطر، ليخضعوا كل القرى المعادية وأنه سيفتح بهم مدينة "أسيوط" نفسها. ومن بعدها ستخضع لهم مدن الصعيد كلها حتى يصلوا إلى "القاهرة" ويدخلونها فاتحين.

مع حلول العيد كان الرجل في القرى المتمردة لا يجد أكثر من كسرة خبز نكتب لقوت يومه، فنال التعب من الثوار وبدأت معنوياتهم في التدهور. تناقل الناس أخبار تناقص الغذاء وبدأ بعض الأهالي بالتذمر في السر من كثرة أعداد النازحين الذين التهموا ما اختزنوه من غلال كانت ستكفيهم وتزيد عن حاجتهم حتى موسم الحصاد الوشيك.

في صباح العيد صلى الشيخ بالناس، ثم جلس تحت نخلة حيث أقبل عليه أتباعه ليهنئوه فاستقبلهم في حبور لا يتناسب مع صعوبة أوضاعهم. بعد الانتهاء من تحية مريديه الذين أحاطوا به تمدد في ظل النخلة ونام، وعندما استيقظ من نومه ظهرت على وجهه علامات البشر والسرور. نفض التراب عن جلبابه ثم سار وسط أتباعه حتى وصل إلى ضفة النهر. بالقرب من الشط شاهد الجميع **أبا القطط** وهو يسحب شباكه فتخرج مثقلة بكميات هائلة من الأسماك، يرفع الشباك من الماء ويرمي ما اصطاده في قاع القارب. الشيخ **الطيب** فرد ذراعه وبارك في صوته الجهوري الصياد الأعمى الذي قذف بشباكه المرة بعد الأخرى ليخرج بها الرزق الوفير. تكرر رمي شباك

الصيد في الماء ومباركة الشيخ لها فتخرج في كل مرة بالخير الجزيل.

جدف **أبو القطط** نحو الشط، فاستقبله الشيخ **الطيب** الذي أعلن للناس المعجزة التي ستطعم أهالي القرية بالإضافة إلى آلاف التابعين الذين جاءوا إلى "قاو الشرق" ومحيطها. حدق في المئات من أنصاره ثم بدأ بتوزيع الأسماك على الحاضرين وسط تهليل وبسملة البسطاء. استمر الشيخ في توزيع الرزق الذي بعثه الله إليهم حتى انتصف النهار فصلى الظهر بأتباعه، ثم رجع إلى البيت الذي يسكنه، حيث أمضى ما تبقى من يومه في نقاش مستمر مع مساعديه للتخطيط لما سيفعله هو وأصحابه خلال الأيام والأسابيع القادمة.

***

عساف الحادي

جاء **مقدام** إلى محل للعطارة في "قاو الشرق" ليبتاع بعض الأعشاب والزيوت الطبية التي يحتاجها **يوأنس المداوي**. سار في شوارع القرية بين الجدران الصماء للبيوت التي تستند كل منها إلى جاراتها، منازل طينية تلتصق ببعضها وتفضي من حين لآخر إلى "رهبة" تنفتح أبواب المنازل عليها وتحيط بها المصاطب حيث يجلس رجال تغضنت وجوههم تحت قسوة شمس الصعيد اللافحة، ويلعب في أرجائها أطفال يصخبون وتتعالى صيحاتهم. لمح **مقدام** مجموعة من الصبية يلعبون لعبة "الطرطقة"، فخطرت بباله أيام صباه عندما رآهم متحلقين حول بقعة ملساء من الأرض يرمون فوقها "الطيبان" المعدة من جريد النخل. مضى في طريقه نحو محل العطارة ليشتري

ما يحتاجه **يوأنس المداوي** من زيوت وأعشاب طبية. هناك أخبره العطار أن الشيخ **الطيب** سيلقي خطبة هامة في أتباعه بعد صلاة الظهر.

بعد الصلاة تجمع عدد كبير من الرجال تحت شجرة جميز هائلة في "الرهبة" الموجودة أمام البيت الذي سكنه الشيخ **أحمد الطيب**، وقف **مقدام** وسط الناس فرأى الشيخ **الطيب** يرتقي مصطبة عريضة لكي يخطب في أنصاره. سرت همهمات في هذا الحشد العظيم لكنها سرعان ما خفتت لكي ينصت الناس للشيخ الذي أخذ يشرح أفكاره عن الملكية والاستخلاف في الأرض. استرسل يومها في الحديث عن نفس تلك الأفكار التي كان يروج لها في محيط "قاو الكبرى" طوال الشهور الماضية. بعد ذلك بشر أتباعه بأنه سيقودهم ليفتحوا القرى الشمالية الواحدة تلو الأخرى. ولكي يوضح لهم بعض ما خطط له، أعلن الشيخ لأنصاره أن **وثاب البختياري** الموجود في "الريانية" يعد طليعة الغزوة التي ستطرد أعداءهم وزبانية الحكومة من كل القرى الموجودة بينهم وبين "أسيوط"، وعندما يتسنى لهم ذلك فإن ما يفتح به الله عليهم من أرض سيُعتبر "فيء" ينتفع به القادرون على زراعة الأرض دون ملكية أو حيازة لها. واستشهد بما فعله الصحابة عندما فتح المسلمون بلاد فارس ومصر والشام. كبر الناس وأقسموا على مناصرته في كل ما يقدم عليه، لكن أحد الواقفين قاطعه متذمرا من قلة المواد الغذائية وانتشار الجوع بين أهالي أرض الجزيرة، ثم سأل الشيخ عن جدوى محاربة الحكومة والقرى المعادية، عندما لا يجد المرء قوت يومه.

غضب الشيخ وزجر الرجل في حدة مؤكدا إيمانه الشديد بقدرة الروح

على تحدي الصعاب المادية وتحقيق المستحيل، ثم قرأ على الناس ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾، لكنه عاد وأقر بأن مخزون المواد الغذائية قد قارب على النفاذ وأن القرى المعادية قد فرضت عليهم حصارا محكما للقضاء على طموحاتهم وعلى ما تنفرد به نفوسهم من تطلعات. ذَكَّرَ الناس بحصار المشركين لرسول الله ومن معه من **بني هاشم** في شِعب **أبي طالب**، وكيف عم الجوع بين المسلمين، فقلت حركة رجالهم وارتفع أنين أطفالهم وشاعت توجعات نسائهم. مضت أيام وأسابيع وزادت الأحوال سوءا، لكن محنة الحصار جعلت المسلمين أكثر صلابة وأقوى إيمانا. أشار الشيخ **الطيب** بيده إلى الرجال الواقفين حوله قائلا إن أجسادهم قد ذبلت وبطونهم قرقرت وقواهم ضعفت، لكنهم سيخرجون من هذه المحنة منتصرين، لأن هذه الضائقة ستصنع منهم أبطالا، مما سيجعل الأجيال القادمة تمتدحهم وتشيد بهم، لأن أبناء تلك الأجيال سينعمون بما حققته تضحيات الأبطال المحيطين به من إنجازات.

ترك **مقدام** الجمع ليتمكن من العودة إلى "عزبة الأقباط" قبل غروب الشمس. ابتعد عن الجموع المتجمهرة حول الشيخ واتخذ طريقه نحو الجسر الواصل بين "القاو" و"عزبة الأقباط". بعد قليل سمع خلفه أصوات قرقعة حوافر حصان وصرير عجلات، فاستدار ليجد وراءه عربة "كارو" يقودها **عبد الرحمن مشهور** الذي اقترب منه وسأله إن كان ذاهبا إلى "الشيخ جابر"، فأجاب بأنه يقصد "عزبة الأقباط". دعاه **عبد الرحمن** للركوب معه قائلا:

– فلتأت معي، ويمكنك النزول على أطراف العزبة بينما أكمل أنا طريقي إلى قريتنا. لقد جئت إلى "القاو" لكي أجلب المواد الغذائية والزاد الذي بعث به أبي لدعم الشيخ **الطيب** ومريديه.

ركب **مقدام** بجوار صاحبه وهو يقول:

– أبوك مغرم بكل ما يقوم به الشيخ **الطيب**. وسيدعمه حتى النهاية.

– كلنا حاربنا مع الشيخ **الطيب**، وهزمنا تجريدة الحكومة. ألا تذكر؟ لقد كنت معنا ورأيت كل شيء بنفسك. ألم يناد الشيخ على الجبل فانتفض وهوت صخوره فوق رؤوس أعدائنا، ففتكت بعساكرهم.

راقب **مقدام** الحقول التي تحيط بجانبي الجسر الترابي. القمح طالت عيدانه ونمت مزاهره فأضفت خضرة رهيفة على الغيطان، رأى سنابله تتمايل مع نسمات الهواء، وأنصت إلى وشيشها الذي يهمس بنذور الربيع. رغم جمال الطبيعة إلا أنه شعر بأن قلبه منقبض. حدسه لم يكذب عليه من قبل وهو يحس أن هذه المنطقة مقبلة على أيام صعبة. لقد حقق الشيخ وأتباعه نصرا غير متوقع، وغنم الثوار أكثر من مائة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة والأمتعة، لكنه يستشعر عدم جدوى كل ما يفعلونه ويتوقع نهاية كارثية لهذه المعمعة. سيسحقهم الخديوي ولن يرحمهم، يأسف لأخواله وما سيلحق بهم، لكنه لا يستطيع فعل أي شيء لإنقاذهم. في حقيقة الأمر، هو لا يأبه لما يدعو إليه الشيخ **الطيب** ولا يبقيه وسط هذه الفوضى إلا رغبة وحيدة وهي الثأر لأبيه. يأمل في أن يغتنم الفرصة لكي يتمكن من قتل **المشاعلي**. يعرف جيدا أن هذا الفعل يحتاج للحظة مواتية لن تسنح له

إلا من خلال حالة الفوضى التي تجتاح القرى الثائرة.

تساءل **مقدام** في نبرة هادئة:

– لكن كيف سنصمد إذا لم نحصل على ما يكفي حاجتنا من طعام؟

– لا تقلب عليّ المواجع! لقد حملت إلى الشيخ أكثر من نصف خزين دارنا من الأطعمة. لقد أصر أبويا على ذلك، ولم يبق لدينا إلا ما يكفينا لخمسة أيام على الأكثر.

– وماذا ستفعلون عندما ينفذ الغذاء؟ هناك عائلات كثيرة لم يعد لديها إلا أقل القليل.

– **جنات** "مرتي" غضبت غضبا شديدا، ولم تصدق أنني أخذت أغلب ما لدينا من زاد لكي أعطيه للشيخ ومريديه. كانت قد شكلت فريقا من نساء القرية يتشاركن فيما لديهن من أغذية ويدبرن ما يعدونه من أطعمة حتى يدوم ما لديهن من خزين لأطول مدة ممكنة.

ضحك **مقدام** في تبسط وقال:

– لا تعتب عليها، فلقد أفسدت عليها تدبيرها.

– لا بد أن ندعم الشيخ حتى النهاية، ليس لدينا خيار آخر غير الاستمرار في المقاومة.

– هل سمعت ما قاله الشيخ **أحمد الطيب** اليوم؟ أنه سيعطي الأرض لمن يزرعها ولن يكون لأحد حق حيازة الأرض. لو صدق الشيخ فماذا سيفعل **المشاهرة** بأراضيهم، هل سيتنازلون عنها للأجراء من الفلاحين كما يريد الشيخ؟

– لا أدري! بالطبع سأفعل ما يأمرني به أبويا وجدي **عبد الكريم**.

سكت **مقدام** وهما يمران بجوار مجموعة من أبراج الحمام. **عبد الرحمن** أشار إليها وقال:

– هل تذكر عندما كنا عيال صغار، جدتك **بدرية** كانت تقول لنا إن الحمام في هديله يسبح لربه ويقول: "يا قيووووم.. يا قيووووم".

ضحك **مقدام** وأضاف:

– والقُمْرِيّ يقول: "نظفوا بيوتكم والغايب جاي.. الغايب جاي".

– أهو الغَايب جه! لكن لماذا غيرت اسمك **لمقدام**؟

أجاب **ممازحا**:

– أمي فعلت ذلك حتى لا تخطفني "الحداية".

خبطه **عبد الرحمن** على كتفه وقال:

– كل واحد منا لديه "حدايته" التي ستخطفه، لكننا نمضي رغم ذلك قدما ولا نهاب ما تُخبئه لنا الأقدار.

أجابه **مقدام**:

– وهذا حال كل الصعايدة. أليس كذلك؟

أوقف **عبد الرحمن** العربة وعقب قائلا:

– من هنا ورايح سآخذ الطريق الصاعد إلى قريتنا. يمكنك النزول هنا.

***

اتجه **عبد الرحمن** بعربته نحو "الشيخ جابر"، بينما مشي **مقدام** على جسر الترعة، نحو "عزبة الأقباط"، قاصدا الراهب **يوأنس** لكي يعطيه ما اشتراه من أعشاب وزيوت. في الطريق انشغل ذهنه بما قاله الشيخ **الطيب** عن عدالة الانتفاع بالأرض، وأدرك ما لدعوته من سحر لدى عامة الناس والفلاحين، فلقد رأى تأثير كلماته عليهم. وبالتالي فهم سر إعجاب الأهالي به لدرجة أن يتبعه رجل راجح العقل **كأحمد مشهور** في نفس الوقت الذي يؤيده مجرم سفاح **كالمشاعلي** أو شخص منافق **كعثمان الأحدب**. يدرك بالسليقة أن مهما فعل الشيخ فإنه لن يستطيع مواجهة الحكومة والتصدي لعساكرها على الرغم من كل وعوده الجذابة وخطبه الرنانة. حتى لو كان "المهدي المنتظر" كما يدعي، فمن أين سيأتيه المدد الذي سيهزم به جيوش الخديوي ومدافعه. ما كان يثير عجبه حقا هو عدم إدراك أولئك الرجال على اختلاف مشاربهم وطباعهم أنهم مقدمون على كارثة لا مفر منها. هل هي الأنفة والإباء ورفض القهر بكل أنواعه؟ كل منهم أحس في يوم ما بالقمع ومن هنا تجذر فيهم باعث خفي يدفعهم إلى تحدي الظلم حتى لو كان في ذلك التحدي هلاكهم. أما هو فيعاني بشكل آخر من نفس هذه العلة، حيث يتحتم عليه أن يرفع عن كاهله القهر الذي فرضه عليه **المشاعلي** منذ أن كان طفلا صغيرا. يعرف أنه يسير في الطريق المرسوم، ويدرك أن فرصه محدودة، لكن لا مفر له من مجابهة التحدي الذي فرضه القدر.

يعرف **مقدام** أن الإنسان قد يتجرع القهر ولا يثمل، وقد يعتاد مذاقه ويألف مرارته فلا يتشكى عندما يبطش به السيد أو الأمير. كلما اعتدنا القهر

تمسكنا بالبقاء ورفضنا الاستسلام لعذابات النفس. بين ضرب السياط وفري الخوازيق ينسدل الستار، وبين لطمة الكف وطعنة السيف تخرس الظلال. وبعدها قد نألف القهر ونهواه، فتجد بيننا من يستنشقه كالهواء ويستعذبه كرشفة ماء، وتصادف كذلك من يتجرع سمومه في كل مناسبة ثم يمسح شفتيه بكفه ويثبت بصره إلى الحائط الماثل أمامه وينتظر.

أيقن **مقدام** أن عليه مواجهة قدره مهما كان الثمن باهظا ومهما كان الوصول إلى هدفه صعبا. لا بد أن ينتهز أقرب فرصة ليستفرد بقاهره وقاتل أبيه، لكن ذلك الأمر ليس بالسهل، فالأحوال العامة مضطربة و**المشاعلي** يتنقل من مكان إلى آخر محاطا بالعشرات من رجالاته المدججين بالسلاح، لكن لا أحد يعرف ماذا سيحدث، فلقد شح الغذاء وانتشر الجوع بين الأهالي، والكثيرون منهم يسقطون فريسة سهلة للضعف والمرض. يعرف **مقدام** أن في مثل هذه الأحوال المضطربة قد تتاح له فرص غير عادية، أما هو فسينتظر مهما طال الزمن.

بحث **مقدام** عن الراهب **يوأنس** حتى وجده جالسا وسط مجموعة من الأطفال في ساحة تتوسط العزبة. قام الراهب ورحب بصاحبه معلنا أنه وصل في الوقت المناسب، لأنه يحتاج المواد التي أحضرها معه لعلاج أحد مرضاه. سأله **يوأنس**:

– هل ستأتي معي؟ أم تفضل أن تنتظرني هنا؟

– أنا لا أشعر بالتعب، وأفضل الذهاب معك.

نفض الراهب التراب عن ردائه الأسود وسار في خطوات واسعة بجوار **مقدام**.

– زرت **عساف الحادي** في الصباح، ووجدته يعاني من آلام في المصارين مصحوبة بتعنية وإسهال. لحسن الحظ أنك أحضرت معك زيت "حبة البركة"، يمكنه تناول القليل منه مخلوطا مع اللبن بالإضافة إلى مضغ ملعقة حلبة "حصى" مع كل وجبة.

– هل هو نفس الرجل الذي اختلف مع الشيخ **الطيب**، وتسبب في ثورة أهالي "القاو"؟

نظر الراهب إلى **مقدام** نظرة العارف ببواطن الأمور، ثم قال في ثقة:

– لا أعتقد إن رغبة **عساف** في استعادة أَمَته كانت السبب الذى أدى إلى هذه المواجهة مع الحكومة. لقد كان الغضب يملأ صدور أهالي الناحية قبل الخلاف بين الشيخ **الطيب** و**عساف الحادي**.

– هل تقصد أن أتباع الشيخ **الطيب** ثاروا لأسباب أخرى؟

– كان لا بد لمديري "جرجا" و"أسيوط" أن يقمعا الأفكار التي يدعو إليها الشيخ قبل أن يتفاقم الموقف، ولذلك استغلا تلك الحادثة لتبرير هجومهما على الشيخ ومحاولة قمع أتباعه من أهالي القرى المحيطة "بالقاو". يجب أن تعي أن الناس لا يثورون إلا من أجل لقمة العيش، وفي أحيان قليلة قد يتمردون لأنهم يرغبون في إقامة العدل، لكنهم لن يتمردوا من

أجل قبطي دخن في رمضان أو أَمَة أعلنت إسلامها وهربت من سيدها.

في بيت **عساف الحادي**، جلس **مقدام** في المنضرة، بينما دخل **يوأنس المداوي** إلى غرفة مريضه لكي يعطيه ما معه من علاج.

بعد قليل جاء **عساف الحادي** مع الراهب إلى المنضرة. رجل وقور يرتدي عباءة من صوف الجمال ويضع فوق رأسه طاقية غامقة اللون. رحب **بمقدام** وقال له:

– أعرف أنك جئت إلينا من "التناغة"، ولا ناقة لك ولا جمل فيما يجري هنا.

– لقد أتيت مع شريكي لإصلاح قبة ضريح "الشيخ جابر".

ـ أخبرني أبونا **يوأنس** بذلك. وعرفت أنك تلازمه في جولاته لعلاج المصابين والمرضى.

– أحس بالراحة في صحبته.

أطال **عساف** النظر إلى **مقدام**، قبل أن يضيف:

– هناك مستفيدون كثيرون من الفوضى الحالية، لذلك يجب أن تكون حذرا من طوب الأرض. هذه أوقات خطيرة، فلماذا لا ترحل عن هنا؟

أجاب **مقدام** في ثقة:

– يجب أن أنتهي من عملي أولا.

– لكنك توقفت عن العمل في ترميم الضريح، ولا تفارق أبانا **يوأنس**.

علق الراهب في نبرة رؤوفة:

– أما أنا فأحب صحبة **مقدام**، خاصة في هذه الأوقات الملخبطة. لا توجد سلطة تضبط الأمن، والطرق أصبحت خطرة. لقد اختلط الحابل بالنابل ووجوده معي يطمئنني.

علق **عساف الحادي**:

– في هذه الأيام نرى الوجهاء والأعيان يخالطون الفلاحين المعدمين والأوباش ومطاريد الجبل. لقد فلتت حبال الناس، وربنا يسترها علينا.

قاطعه الراهب قائلا:

– تعتقد أنه خليط عجيب. أليس كذلك؟ لكن تذكر أن ﴿اَلْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ يَتَلاَقَيَانِ، صَانِعُهُمَا كِلَيْهِمَا الرَّبُّ﴾.

تابع **عساف** حديثه:

– يعتقد الناس أن الفقراء والغلابة هم من يؤججون الثورات. لكن في حقيقة الأمر الثورات لا تشتعل إلا إذا انقلب الأعيان والوجهاء على السلطة. زيادة هموم النُخب والمتعلمين وعدم رضاهم عن الحاكم تمثل الأسباب الحقيقية لأي عصيان.

قاطعه الراهب:

– الشر يكمن في الرغبات الدنيوية. نقرأ في الأمثال: ﴿اَلْقَلِيلُ مَعَ مَخَافَةِ الرَّبِّ، خَيْرٌ مِنْ كَنْزٍ عَظِيمٍ مَعَ هَمٍّ﴾.

– انظر إلى الأراضي الزراعية الشاسعة التي يضع **البختياري** يده عليها، أو

تلك التي في حيازة **عبد الكريم مشهور** وأولاده. لماذا يثور هؤلاء ويتحدون الحكومة وبأس عساكرها؟

– ربما أنهكتهم الحكومة بالضرائب وأزعجتهم المزايا التي تمنحها للمرابين ورجال الأعمال من الأوروبيين.

رفع **عساف الحادي** منكبيه ثم مال نحو **مقدام** وسأله:

– قد تكون محقا. لكن هل تعرف **الصانعة يا بنات؟**

هز **مقدام** رأسه بالإيجاب، فقال الراهب **يوأنس**:

– لقد جاءت في الصباح إلى هنا لتعرض بضاعتها على أهل البيت، وعندما رأتني توهج وجهها من الفرح وأقبلت عليّ تطلب البركة، ثم بدأت تسألني عنك وعن اصطحابي لك في زياراتي للمرضى والمصابين.

أضاف **عساف**، موجها حديثه إلى **مقدام**:

– استفسرت **الصانعة** أيضا عن شخص يُدعى **جساس**. وسألتنا إن كانت لك صلة بذلك الشخص. لماذا تسألنا تلك المرأة عن أمر كهذا؟ ما دخلنا نحن ومن أين لنا بمثل هذه المعلومات؟

أجاب **مقدام** في نبرة قاطعة:

– لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

ما لم يعرفه **مقدام** هو أن **الصانعة يا بنات** قد باعت سره **للمشاعلي**. فعندما التقت **بمقدام** في السوق واضطرب لسؤالها عن **جساس**، تذكرت الحديث الذي دار بينها وبين **جنات**. وبالطبع كان من السهل على امرأة

متمرسة مثلها أن تدرك قيمة هذه المعلومة بالنسبة **للمشاعلي**، وأن تفطن إلى ما ستناله من مال مقابل السر الخطير الذي انكشف لها.

***

وثاب البختياري

بعد لقائه مع **عساف الحادي** أيقن **مقدام** أن أمره انكشف وأن **حماد المشاعلي** سيعرف بحقيقة هويته عاجلا أم آجلا. لذلك أصبح من الضروري الابتعاد عن ضريح "الشيخ جابر" حتى لا يصل إليه **المشاعلي** أو أي من زبانيته. لكن هل يمكنه تفويت فرصة الثأر لأبيه؟ كيف سيرفع رأسه وسط الخلق إن لم يفعل؟ وبما أن سره قد انكشف فإن **المشاعلي** سيصل إليه حتى لو عاد إلى "التناغة". أصبح إذن قاتلا أو مقتولا، وعليه أن يواجه مصيره ولا مناص له من الامتثال لقدره. مع حلول مساء ذلك اليوم بات **مقدام** ليلته وسط الغيطان، وقرر أن ينام في مكان مختلف كل ليلة على أن يتنقل باستمرار خلال النهار من مكان لآخر.

مع أول ضوء لصباح اليوم التالي ذهب إلى الضريح ليحذر **حسون** من خطورة الموقف، لكنه وجد **عبد الرحمن مشهور** في انتظاره. كان الشيخ **أحمد الطيب** قد أعطاه كتابا مختوما بالشمع الأحمر وطلب منه أن يسلمه إلى **وثاب البختياري** في "الريانية". وعندما ناوله الشيخ الرسالة أوصاه بأن يصطحب معه **مقدام** الذي ارتاب في الأمر وتعجب لصدور هذا القرار من الشيخ نفسه. تساءل إن كان **للمشاعلي** علاقة بهذا الشأن؟ لكنه اطمأن عندما علم بأن سفرهما تقرر مساء الأمس فور وصول الشيخ **الطيب** إلى "الشيخ جابر". الرسالة التي سيحملانها **للبختياري** كُتبت أثناء زيارة الشيخ **الطيب** لمنزل **عبد الكريم مشهور**، وابنه **أحمد مشهور** هو صاحب اقتراح ذهاب **مقدام** مع **عبد الرحمن** إلى "الريانية".

دخل **مقدام** الغرفة وأيقظ **حسون** طالبا منه مغادرة "الشيخ جابر" فورا والعودة إلى "التناغة". استغرب **حسون** هذا الطلب، خاصة بعد أن أخبره أنه ذاهب إلى "الريانية" مع **عبد الرحمن مشهور**. اعترض **حسون** بسبب ما يعرفه عن الموقف المتوتر في تلك البلدة، وعن احتمال اشتعال المواجهات هناك في أي لحظة. في الوقت ذاته رفض الرحيل قبل الانتهاء من ترميم قبة الضريح وأعلن رغبته في البقاء في "الشيخ جابر" حتى يعود **مقدام** من رحلته. لكن **مقدام** ألح عليه لكي يرحل في الحال مما زاد من دهشة **حسون** وطلب من صاحبه توضيح الأسباب التي تدفعه للتعجيل بالرحيل. اكتفى **مقدام** بتكرار أن وجودهما بالقرب من الضريح يشكل خطورة كبيرة على حياتهما، ولم يشأ أن يخوض في موضوع مقتل أبيه أو الثأر

من **المشاعلي**. توسل **مقدام** لصاحبه بتجنب طرق البر الشرقي لخطورتها، ونصحه بالذهاب أولا إلى "قاو الشرق" ومن هناك يمكنه عبور النيل إلى البر الغربي، بعد ذلك يتجه شمالا إلى "بوتيج" ثم يعبر النهر مرة أخرى عائدا إلى "التناغة".

سافر **عبد الرحمن** و**مقدام** إلى "ريانية أبو أحمد" على الطريق المحاذي لترعة "القاو". الجبل الشرقي ارتفع على يمينهما وامتدت ظلاله فوق سبيلهما مما زاد من برودة الهواء. في الطريق أفصح **عبد الرحمن** عن مخاوفه لما يحدث في قرى أرض الجزيرة، كأنها "شوطة" أخذت ناسها على غرة، فتأججت صدورهم بالغضب ولم يعد أحد منهم قادرا على التراجع أو مراجعة نفسه. أبوه يؤمن بكافة ما يقوله الشيخ ومستعد للتضحية بكل شيء من أجل نصرته. جده **عبد الكريم** وعمه **مصطفى** يشعران بخطورة الموقف لكنهما لا يستطيعان الوقوف في وجه الشعور العام بالسخط على الحكومة وعمالها. قال **عبد الرحمن**:

– في تلك الأحوال، إما أن تقف مع ناسك أو مع الحكومة. ألم تر كيف هرب العُمد ومشايخ البلاد بعد هزيمة تجريدة الحكومة؟

– من الصعب أن يساند أحد الحكومة مع كل ما تمارسه من تعسف، وخاصة بعد تخليها عن الناس في أوقات الكوارث والمصائب.

– أختي **فاطمة** تعيش في "كفر العقال" منذ أن تزوجت من **حسين العقالي** ولها منه ثلاثة أبناء. أبوه العمدة يكره **أحمد الطيب** وأهل قريته لم يعلنوا بعد ولائهم للشيخ.

– "الريانية" قريبة جدا من "كفر العقال"، ربما يمكنك زيارتها بعد أن نسلم رسالة الشيخ **لوثاب البختياري**.

– العبور إلى القرى المعادية يمثل مجازفة خطرة، لأن مدير مديرية "أسيوط" أمر بإلقاء القبض على أي شخص ينتمي إلى القرى الثائرة.

– **عبد العال العقالي** لن يقبض عليك، فأنت صهره.

– في هذه الأيام الصعبة ليس بالإمكان توقع ما يمكن حدوثه. الأحوال ملخبطة لدرجة لا تسمح لنا بالثقة في غريب أو قريب. آخر مرة التقيت **حسين العقالي** اتهمني بالجنون لأنني أساند أبي وبعدها لم تزرنا أختي **فاطمة**.

– تأثيرات الأحداث الأخيرة على الناس تجاوزت كل التوقعات، لقد قلبت كل شيء رأسا على عقب، وفرقت بين الأهل والأصدقاء.

– لقد فرقت بين أبي والعمدة **عبد العال**، لقد كانا أصدق الأصدقاء. العمدة في أكثر من مناسبة عاتب أبي، ومن أول يوم أعلن **العقالي** أن الشيخ **الطيب** رجل مهووس سيؤدي بنا جميعا إلى الخراب.

– لكن الشيخ **الطيب** وقف في وجه الظلم وتحدى تعسف السلطة.

علق **عبد الرحمن مشهور** في تفاؤل:

– انظر حولك يا **جساس**. كل الأشياء كما هي ولم تتغير. الحقول وسنابل القمح وأشجار النخيل وصخور الجبل هي نفسها التي عايشناها طوال سنين عمرنا، لكن هناك شيء مختلف فيما نتنفسه من هواء، شيء يجعلنا نشعر بأن الحياة قد تغيرت لمجرد أننا تخلصنا من ظلم الحكومة والأوضاع السيئة.

– لقد حارب الأهالي تجريدة حاكم "جرجا" وانتصروا عليها. لكن هل سيمكنهم الصمود؟

– من يصمد مكانه ويبقى في الميدان حتى النهاية هو من ينتصر.

أجابه **مقدام**:

– لكن عندما تواجه قوة غاشمة، وتحاول الصمود في وجهها، سيكون مصيرك الفناء حتى لو كنت على حق.

هزّ **عبد الرحمن** رأسه مؤيدا لما قاله صاحبه، ثم أردف:

– والعجيب أن هناك من سينتصر دون قتال حتى لو كان على باطل.

– هل تقصد **عبد العال العقالي**؟

– لا تغلطني يا أخي، **فالعقالي** من أشهم رجال الناحية، ناسه وأهل قريته يكنون له احتراما شديدا، لكنه لا يطيق الشيخ **الطيب** وما يدعو إليه من أفكار مناهضة لسلطة "القاهرة" وكذلك تحديه العلني لقرارات الحكومة.

تساءل **مقدام**:

– وهل سيسكت الخديوي عما يجري هنا أم أنه سيرسل قوة أكبر لإخضاع القرى المحيطة "بقاو الكبرى"؟

ردّ **عبد الرحمن**:

– حتما سيفعل، ليس هناك شك في ذلك، وسنقاومها بكل ما نملك من قوة حتى لو كان في ذلك خرابنا.

***

عندما وصل **مقدام** و**عبد الرحمن** إلى مشارف "الريانية" ظهرت أمامهما

أبراج الحمام التي تنتشر في محيط القرية، فبدت كأنها أسوار عالية تحمي مدينة سحرية. تداخلت أشكال بيوتها الطينية مع الأبراج فظهرت ككتلة سمراء تزينها التيجان الخضراء لأشجار النخيل. في طرقات "الريانية" سأل الصديقان عن بيت **البختياري** فعرفا أنه موجود في حقله. استغربا حالة الاسترخاء وعدم الاكتراث التي تملكت الناس، وكأن أهل البلدة لا يستشعرون الأخطار المحدقة بهم. ذهبا إلى غيط **البختياري** فوجداه هناك يشرف على عدد من العمال المأجورين. أقبلا عليه فاستدار نحوهما. رجل قصير له "كرش" مستدير، ذو ملامح متجهمة، لا تفهم من تعبيرات وجهه ما يدور في خلده. احتضنهما مبديا اهتمام كبير بالرسالة التي بعثها إليه الشيخ **الطيب**. سألهما عن الأحوال في "الشيخ جابر" و"القاو"، ثم تناول المكتوب وفض أختامه فعرف أن الشيخ يطالبه بالتحرك فورا لفتح القرى الواقعة شمالي "الريانية" والبدء في العمل على تأجيج مشاعر الثورة في تلك البلدات. أشار المكتوب أيضا إلى أن حاملي الرسالة، **مقدام الطواب** و**عبد الرحمن مشهور**، سيمكنهما مساعدته أثناء تقدمه نحو الشمال بسبب علاقة الأول بأهالي "التناغة" و"النواميس"، ومصاهرة الثاني **لعبد العال العقالي**.

بعد أن انتهى **البختياري** من قراءة الرسالة حكى لهما عن أحداث وصوله إلى "ريانية أبو أحمد" بعد هزيمة تجريدة مدير "جرجا"، وكيف استقبله أهلها استقبال الفاتح المنتصر والمخلص الذي سيقيم ميزان العدل. استرسل كذلك في وصف تحمس الناس لدعوة الشيخ **الطيب** واعتقادهم في حقيقة

أنه "المهدي المنتظر". أخبرهما أيضا أن عدوى الثورة كانت قد انتشرت شمالا إلى العديد من القرى والنجوع. ولذلك، عندما وصل **البختياري** إلى "الريانية"، قرر المضي قدما إلى "كفر العقال" لدعوة الناس إلى مبايعة الشيخ **الطيب**. ما شجعه على ذلك هو علمه بأن الناس، بعد وصول أخبار تجريدة الحكومة وهزيمتها، أخذوا يتجمعون في "كفر العقال" لاستقبال **البختياري** كنائب للشيخ وحامل لرايته. لكن ما لم يتوقعه كان خروج **عبد العال العقالي** وسط أولاده إلى أول الطريق الواصل بين القريتين وتحريضه الناس ضد الشيخ **الطيب** وحثهم على الوقوف مع الحكومة. وبما له من فصاحة لسان وعزوة وإعزاز بين أهالي بلدته، تمكن **العقالي** من إقناع الناس بخطورة تحدي سلطة "القاهرة" وما قد يعقب ذلك من أهوال وخراب. عندما عرف **البختياري** بانقلاب موقف أهالي "كفر العقال" من حال إلى حال، قرر عدم التقدم إلى هناك خوفا من تقاتل الناس ووقوع مواجهات قد تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه.

أرسل **البختياري** أحد عماله ليصطحب ضيفيه إلى منضرة بيته. استغرب **مقدام** شكوى العامل من الأوضاع السائدة بعد الثورة، خاصة مع تناقص الغذاء في أواخر رمضان. كشف لهما أيضا عن عدم رضا الناس وتذمرهم بسبب خطورة المناطق المحيطة بالقرية وعدم استقرارها بعد هروب العمدة السابق والخفراء. سأله **مقدام** عما يفعله **البختياري** كعمدة للقرية وعن الإجراءات التي اتخذها لكي تستقر الأحوال في "الريانية". راوغ الرجل ولم يعطه جوابا شافيا، لكنه اشتكى من كثرة كلام **البختياري** عن توزيع

الأرض على الفلاحين بالتساوي لكن لا أحد يعرف ماذا جرى لأراضي الفارين من الأعيان. وعندما أخبره **عبد الرحمن** أن أفكار الشيخ **الطيب** عن توزيع الأراضي لم تطبق حتى تلك اللحظة، تساءل الرجل عن جدوى الثورة إن لم نسع إلى تحقيق ما ندعو إليه. سكت الثلاثة وساد الصمت وهم يسيرون على جسر ترعة "القاو"، بعد قليل انعطفوا نحو الشرق ومشوا في شوارع القرية في اتجاه بيت **البختياري**. الطريق الصاعد إلى هناك يتشابك ويتقاطع مع الشوارع التي تتلوى وتضيق وتنبسط بلا داع أو سبب واضح. في نهاية الطريق وصلوا إلى بيت كبير على أطراف القرية تحيط به الحقول الممتدة حتى سفح الجبل.

أحسن **البختياري** وفادتهم وأكرمهم حسب مقدرته، وفي المساء أخبرهما بأن الشيخ **الطيب** في كتابه يأمرهما بالبقاء في "الريانية" حتى تبدأ الحملة التي يجهز لها للهجوم على القرى الشمالية. بعد أن رجعا إلى غرفتهما أبدى **عبد الرحمن** تعجبه من هذا الأمر ولم يفهم لماذا لم يخبره أحد بهذا المخطط قبل مغادرته "للشيخ جابر"، واشتكى **لمقدام** بعده عن بيته وعن امرأته الشابة.

حاول **مقدام** التخفيف من وطأة المفاجأة فأوحى لصديقه بالترويح عن أنفسهما بالذهاب بعد غروب الشمس إلى الساحة الموجودة بالقرب من المقابر حيث نصبت مراجيح العيد وخيام المداحين والرواة. عندما وصلا إلى هناك تجولا لفترة بين الناس ثم جلسا في أحد المقاهي المؤقتة، بعد أن أمضيا ما يقرب من الساعة في إحدى خيام المداحين.

عندما هما بالرجوع إلى دار **البختياري** مرا بركن من الساحة يصخب بالضحكات فتبين لهما أن أحدهم يقدم عرضا ساخرا لخيال الظل، عنوانه "عجيب وغريب". ذاك العرض كان يحكي عن مكائد وأحابيل أكثر من عشرين شخصية من الساسانيين والأعيار. جلس الصديقان بين المشاهدين الذين تعالت قهقهاتهم، وأبصرا على شاشة العرض انعكاس خيال أحد الشخوص الذي يمثل مروضا للأسود. "المخايل" أنشد:

أنْظُرُوني يا سادتي كيفَ حالي في مـــدارات ضَـيـغَـم قَـتَّـالِ
مَلِـكٌ جائـر أرُوم رضـاه كـل يـوم بذلـةٍ واحتـلالِ
ليس يُبْقِي علَيَّ إلا لأني سائـسُ مُطـعِـمٌ بلا إخـلالِ
وأنـا في يدَيْـه قِطعَةُ لَحمٍ فأنقذوني من ربقةِ الأكـلالِ

***

شلضم البلاع

"يا لطيف يا ستار، يا لطيف يا ستار".

مئات المعتقلين في سجن "أسيوط" أخذوا يرددون أسماء الله الحسنى بأعلى أصواتهم، واستمروا في تلاوة جمعية لآيات من القرآن لكي يغطوا على أصوات المناشير التي قطعوا بها سلاسل قيودهم ونشروا بها قضبان زنازينهم. بعد هزيمة حاكم "جرجا" وصنجق الأربعمائة، **رفاعة أغا**، صدر مرسوم بعزلهما. في نفس الوقت، شن مدير مديرية "أسيوط" حملة شعواء للقبض على كل من يساند الشيخ **الطيب** أو يدعو لأفكاره. لكن تأثير الحالة الروحانية لصيام شهر رمضان أدت إلى تقبل الناس لما يدعو إليه الشيخ **الطيب**. وكذلك النصر المعجز الذي أحرزه شجع أتباعه على الاجتهاد في

نشر أفكاره. هزيمة تجريدة الحكومة على يد مجموعة من الفلاحين العُزل حفزت الناس الذين اعتبروا تلك الواقعة إشارة من السماء بأنه حقا "المهدي المنتظر"، واعتقدوا أنها كرامة أخرى من كرامات الشيخ تضاف إلى ما عرف عنه سابقا من القدرة على تحويل الرمل والطين إلى حديد ورصاص.

رغم الهدوء الذي ساد القرى الثائرة وما بدا على السطح من انشغال أهاليها بالعبادة في الأيام العشرة الأواخر من شهر رمضان، إلا أن النصر الذي حققه الشيخ **أحمد الطيب** بالتعاون مع **حماد المشاعلي** زاد من طموحات الرجلين فعقدا العزم على مهاجمة مدينة "أسيوط" نفسها حتى تخضع لهما المديرية بأكملها. توقعا أن ترسل "القاهرة" تجريدة ثانية أقوى من الأولى للقضاء على الثورة، لذا قررا أن يعملا فورا على الإعداد للهجوم على "أسيوط"، فأرسلا مجموعات صغيرة مكونة من أشد الدراويش عزما وأمهر الرجال في المجادلة وذلك للدعوة لأفكار الشيخ في القرى الشمالية حتى تنضم تلك البلدات إلى الثورة فيصبح الطريق إلى "أسيوط" ممهدا أمام جيشها. بالإضافة إلى ذلك نصحهما **زغبر الكلبي** بأن يستغلا تحفز مدير مديرية "أسيوط" ونشاطه في القبض على أنصار الشيخ لكي يزرعا عددا من رجال **المشاعلي** داخل سجن المديرية، حيث يمكن العمل على تحرير مئات المساجين الذين طفح بهم سجن مدينة "أسيوط"، ولو نجحوا في الهرب من السجن سيقومون بإثارة الاضطرابات في المدينة حتى يدخلها الشيخ **الطيب** وأنصاره.

بناء على تلك النصيحة أرسل **المشاعلي** عددًا من رجاله وعلى رأسهم

شلضم البلاع إلى "بوتيج" و"البداري" و"ساحل سليم" لكي يدعوا الناس هناك إلى الانضمام إلى التمرد. كان القصد من ذلك أن يلقي عُمد ومشايخ تلك البلدات المعادية للثورة القبض عليهم، ويقومون بإرسالهم إلى سجن "أسيوط" حيث سيعملون على تجنيد المساجين وإقناعهم بعدالة القضية التي يدعو إليها الشيخ **الطيب** وبأنه "المهدي المنتظر" الذي سيخلص الناس جميعا من الظلم والطغيان. وبعد أن يقتنع المساجين بذلك سيقودهم **شلضم البلاع**، حسب الخطة الموضوعة، للهروب من السجن وإشاعة الفوضى في شوارع "أسيوط" تمهيدا للهجوم الذي سيشنه الشيخ **أحمد الطيب** على المدينة.

عندما قُبض على **شلضم** قادوه إلى سجن "أسيوط" حيث أقنع المساجين بخطة الهروب وزين لهم أنهم، بعد خروجهم وانضمامهم إلى جيش الثوار سيقومون بطرد أغنياء المدينة من الأتراك والأروام والأجانب، ثم يستولون على أموالهم وأملاكهم كغنائم حرب. استحسن هؤلاء ما يقوله وبدأوا العمل من أجل تنفيذ خطة الهروب الجماعي من السجن. كانت الحيلة التي نفذها هؤلاء تعتمد على تهريب عدد من المناشير إلى **شلضم البلاع** عن طريق معارف **وثاب البختياري** الذين كانت تربطهم صلات قوية بعدد من حراس سجن "أسيوط"، خاصة العساكر الذين كانوا يتذمرون من قسوة الضباط وسوء معاملتهم. استغل معارف **البختياري** سخط هؤلاء فأغروهم بالمال وتم لهم ما أرادوا.

انتهز **شلضم البلاع** فرصة تجمع كل المساجين لأداء صلاة عيد الفطر

ووزع المناشير على زملاء له محجوزين في ثلاثة زنازين متفرقة، وأوعز لباقي المساجين بأن يقوموا بتلاوة آيات من القرآن الكريم بصوت عال، مع ترديد نداء "يا لطيف" بأقوى ما يمكنهم لكي يغطوا بذلك على أصوات المناشير. لم ينتبه حراس السجن إلى محاولة الهرب ولم يكن لديهم أي فكرة عما يجري. في الساعات الأولى لثالث أيام العيد كان السجناء في الثلاث زنازين قد تمكنوا من تقطيع سلاسلهم وقاموا بالحفر أسفل جزء من جدار باحة السجن، مما أتاح لهم النفاذ إلى الباحة الداخلية للسجن.

قاد **شلضم البلاع** هجوما مباغتا على قشلاق الحرس الموجود في الطرف الشمالي للباحة الداخلية واستولى على مفاتيح الزنازين التي استعملها لإطلاق سراح جميع المساجين. ساد الاضطراب ففر الحراس ولم يمنع المتمردين من الهرب سوى الباب الخارجي. **شلضم البلاع** ومن معه من المساجين طاردوا الحراس الذين اختبئوا في أماكن متفرقة داخل مباني السجن. فأضرم المتمردون النيران في "ميس" الضباط وأماكن مبيتهم، كما تمكنوا من عزل حراس السجن في مخابئهم ومنعوهم من التواصل أو التعاون فيما بينهم. بعض المساجين حاولوا تسلق أسوار السجن الشاهقة، لكنهم تراجعوا عن فعل ذلك بعد سقوط اثنين منهم وتهشم عظامهما. بعد دفاع مستميت لثلاثة عساكر يرأسهم ملازم شاب، اقتحم **شلضم البلاع** "جبخانة" السلاح واستولى على ما بها من بنادق وذخائر وبارود، فأصبحت اليد العليا للمساجين الذين تدفقوا إلى الساحة الخارجية ولم يعد أمامهم إلا تفجير الباب الخارجي لينعموا بالحرية. بدأ على الفور العمل من أجل نسف باب السجن الحديدي،

وفي الوقت نفسه اجتمع **شلضم البلاع** مع عدد من زملائه لكي يخططوا لما سيقومون به من أعمال تخريبية بعد هروبهم. أوضح لهم أهمية قطع أسلاك التلغراف، والاستيلاء على المراكز الحيوية في المدينة تمهيدا لوصول الشيخ **الطيب** مع جيشه من الدراويش والأنصار.

عثر المساجين على برميل للبارود في "الجبخانة" فنقلوه إلى بوابة السجن ووضعوه خلف بابها الثقيل المصنوع من الحديد، ابتعدوا عنه لأكبر مسافة ممكنة ثم أشعلوا الفتيل. انفجار هائل هز جدران السجن لكنه لم ينسف الباب، فلقد أخطأ المساجين بوضع البرميل بعيدا من مفصلات وأقفال الباب. تفحص **شلضم البلاع** الانبعاج الذي أحدثه الانفجار في الألواح الحديدية، غير مصدق أن الباب لم ينخلع من مكانه. نادى على المساجين وطلب منهم إحضار كل ما يجدونه من مطارق وكتل معدنية ثقيلة ليحطموا بها الباب.

ما لم يعلمه **شلضم البلاع** هو أن الشيخ **الطيب** لم يتحرك بجيشه من "القاو" وذلك بعد أن تصدى **عبد العال العقالي** لأنصار الشيخ من الثوار. كان **همام بك** قد أرسل من "ساحل سليم" مئات العبيد والغلمان المدججين بالسلاح إلى "كفر العقال" لكي ينضموا إلى رجال **العقالي**، وشكلوا بذلك قوة لا يستهان بها في مواجهة أنصار الشيخ الموجودين في "ريانية أبو أحمد". **وثاب البختياري** رصد تحركاتهم في "كفر العقال" وأرسل إلى "قاو الكبرى" يطلب المدد لأن وصول عبيد **همام بك** شكل تحولا خطيرا هدد وضع الثوار الموجودين في "الريانية".

العامل الأكثر حسما والذي لم يعرفه **شلضم البلاع** هو وصول أورطة من الفرسان إلى مدينة "أسيوط" قادمة من "المنيا". كانت تلك الأورطة في طريقها إلى "القاو"، لكن عند وصولها إلى "أسيوط" أمرها مدير المديرية بالتوجه على الفور إلى السجن لمداهمة المتمردين بعد أن دعمهما بقوة من عساكره، وشدد على أهمية إخضاع المساجين وسحق عصيانهم. فرسان الأورطة اتخذوا وضع الاستعداد خارج أسوار السجن قبل أن يشعل عساكر المديرية عددا كبيرا من براميل البارود وضعوها أمام البوابة الخارجية. في هذه المرة انهار الباب الحديدي، وجفلت الخيول تحت فرسانها الذين تمكنوا بصعوبة من الإبقاء على تشكيلاتهم، لكن عندما حاول المساجين الخروج من البوابة أمطرهم العساكر بوابل من الرصاص فسقط الكثيرون منهم، وفي هذه اللحظة اقتحم الفرسان بخيولهم ساحة السجن وهم يعملون السيوف في المساجين. **شلضم البلاع** تراجع إلى داخل "الجبخانة" ومعه عدد من قادة التمرد الذين استمروا في المقاومة وتبادلوا إطلاق النيران مع عساكر المديرية. مع اقتحام ساحة السجن وهجوم الخيالة المباغت استسلم معظم المساجين، وبذلك ضاق الخناق على **شلضم البلاع** ومن معه. بعد ساعة من المقاومة المستميتة اتضح للمساجين عدم جدوى القتال فاستسلموا لقوات الحكومة. اقتحم العساكر "الجبخانة" وألقوا القبض على **شلضم البلاع** ورفاقه. باقي المساجين رأوهم يقطعون ساحة السجن وهم مكبلون في الأصفاد وسط صفين من العساكر الميري بملابسهم البيضاء.

لم يعرف أحد ماذا جرى **لشلضم البلاع** بعد اقتحام السجن، الوقائع

اختلطت بالشائعات والأوهام، بعض الحكايات أكدت أن عساكر المديرية علقوه هو ورفاقه في المشانق التي أقاموها في الساحة الخارجية، بينما تحدثت غيرها عن تسمير جثمانه ومعه قادة العصيان على بوابات السجن. روايات أخرى أشارت إلى دفنه حيًا تحت الأرض في إحدى الزنزانات المظلمة في القبو السفلي للسجن، أو عن معجزة اختفائه بعد أن تبخر في الهواء وسط ذهول سجانيه.

***

ميمون القراد

من خلال الحد الفاصل بين النور والخيال تمرق الحقيقة إلى الوجود.

بعد أن انتهيا من قياس حدود "قاو الشرق" انتقل **محمود الغريب** و**شبل السباعي** إلى "كفر العقال" للقيام بأعمال المساحة الضرورية لرفع حدود قرية "ريانية أبو أحمد". **العقالي** استقبلهم بود مبالغ فيه ودعاهم لتناول العشاء معه هو وأولاده. أفصح لهما عن جهوده لإقناع الناس بالابتعاد عن الخراب الذي جلبه الشيخ **الطيب** على المنطقة. يقول في أسف:

– لقد حاولت كثيرا مع **أحمد مشهور** لكنه لم يستمع إليّ وفضل المضي في طريق الهلاك. لا أعرف لماذا يثور شخص مثله رغم ما ينعم به من يسر وراحة.

تساءل **شبل السباعي**:

– أنت أقدر على معرفة دوافعه، لقد كان صديقك وصهرك.

أشار إلى أحد أبنائه وأضاف:

– ابنته **فاطمة** كانت زوجة ابني **حسين**. لكنها اختفت بعد الغارة هي وأولادها ولا نعرف أين ذهبوا. لم يرهم أحد منذ ذلك الحين.

عقب **محمود الغريب** قائلا:

– عرفنا أن الخديوي كفل لك "الريانية" بعد أن نفى أهلها إلى دمياط.

هزّ رأسه بالإيجاب وقال:

– لهذا السبب يهمني جدا أعمال المساحة التي تقوم بها. عندما تبدأ أعمال إعادة التعمير سأطلق عليها اسم "العقال قبلي".

ضحك **حسين العقالي** وقال:

– بعد ذلك لن يذكر أحد "ريانية أبو أحمد" وسيعرفون فقط "العقال بحري" و"العقال قبلي". هل تعرف أن زمام القريتين يضم أفضل أراضي المديرية؟

علق العمدة **عبد العال**:

– أهال "الريانية" كانوا على درجة هائلة من الثراء. الذهب الخاص بنساء كل عائلة كان يحفظ في حرز كبير مصنوع من جلد رقبة الجمل وبطولها. لا أصدق أن الحمق بلغ بهم حدا أدّى إلى خسارتهم لكل ما يملكون.

اعتدل **محمود الغريب** في جلسته وقال:

– سننهي أعمال المساحة على أحسن وجه.

تابع العمدة حديثه:

– لقد قدمنا دعما كبيرا إلى **فاضل باشا**، وانضم إلينا رجال **همام بك** من "ساحل سليم"، عندما انهزمت القرى المتمردة سُمح لنا باستباحتها كمكافأة لنا. فكان من نصيبنا أن نغنم ما وجدناه في "الريانية" بينما غنم **همام بك** ثروات "النطرة" و"الشيخ جابر". الواحد منا يجب أن يقف مع الجانب الرابح.

– أهذا ما حصلت عليه كمكافأة لوقوفك مع الحكومة؟

– وكمكافأة لكما سنشاهد معا الليلة عرضا لخيال الظل يطلقون عليه "عجيب وغريب". هل سبق لكما أن شاهدتاه؟

في حوش البيت فرد **عجيب الزمان** ستارة العرض، واجتمع أولاد العائلة حول **عبد العال العقالي** وضيفيه. أضاء "المخايل" مصباحه وبدأ يشدوا بكلمات شخوصه وهو يحرك الدمي المصنوعة من الجلد والخشب أمام النور المنبعث من المصباح. ضرب "الحازق" الدربُكة وأنشد:

أيـن زمـاني الـذي تقضى وأيـن جـاهـي وأيـن مـالي

وأيـن خُفـي وطيلسـاني وأيـن قـيـلي وأيـن قـالي

بعد انتهاء العرض انسحب الضيفان إلى غرفتهما في المضيفة. لكن قبل أن يخلد **محمود الغريب** إلى النوم، سمع دقات خفيفة على شباك النافذة. فتح الضلفة فوجد **أبا العجب** الذي أخبره أن معلمه في انتظاره ليحكي له ما جرى بين **مقدام المواسي** و**ميمون القراد**. قفز **محمود** من النافذة

ولحق به **شبل السباعي**. سار الاثنان مع **أبي العجب** حتى وصلوا جميعا إلى ساحة واسعة على أطراف القرية. تقدم **عجيب الزمان** إليهما وهو يقول **لمحمود الغريب**:

– ها نحن نلتقي مرة أخرى. ألم تشاهد عرض "عجيب وغريب" من قبل؟ مثل هذه العروض الهزلية لا تثير غضب الأهالي هنا في "العقال".

– لا أنا لم أشاهده من قبل، إنه عرض ساخر ولا يمت بصلة إلى ما عرضته علينا في "النواورة" و"قاو الشرق" رغم تشابه أسماء الشخصيات.

أطال **عجيب الزمان** النظر إلى **أبي العجب** ثم قال:

– في ساحة كهذه التقيت لأول مرة مع **مقدام المواسي** في "الريانية" حيث شاهد عرض "عجيب وغريب". سأحكي **لمحمود الغريب** وصاحبه ما حدث **لمقدام** هناك، فهما الوحيدان في "كفر العقال" اللذان لن تغضبهما عروضي عن الغارة.

أجاب **شبل السباعي** في لهفة:

– ليتك تكمل الحكاية حيث تركتها في آخر عرض لنا، عندما كتب الشيخ **أحمد الطيب** رسالة إلى **البختياري**، وطلب من **عبد الرحمن مشهور** و**مقدام** توصيل مكتوبه إلى "الريانية" والبقاء هناك حتى يجد جديد.

***

في "الريانية" بات **مقدام** لياليه في الخلاء خشية انكشاف سره ولخوفه من بطش **المشاعلي**. مساء كل ليلة بعد العشاء يرجع مع **عبد الرحمن** إلى

المنضرة ثم يتركه هناك ويتسلل إلى الحقول ولا يرجع إلا بعد صلاة الفجر. يظل مستيقظا حتى ينهض **عبد الرحمن** من فراشه فيخطف ساعة من النوم السريع حتى تبزغ الشمس. أرهقه صحيان الليل لكن التوجس من الأخطار المحدقة به نبهت حواسه وأججت مشاعره. في اليوم الخامس هبت ريح صحراوية وتشبع الهواء بالتراب فاصفرت السماء، أغلق الأهالي أبوابهم ونوافذهم وقلت حركة المارة في الطرقات. مع حلول الليل اشتدت الريح التي أطاحت بالتعاريش وطيرت أعواد البوص من فوق الأسطح. أصوات تخبيط الأخشاب المتطايرة ترددت طوال الليل.

أمضى الصديقان الساعات الأولى من المساء في المنضرة مع **البختياري** الذي حكى لهما عن لقائه الأول بالشيخ **الطيب**، وكيف رأى فيه القدرة على سبر أغوار المشاكل التي يعاني منها الجميع، واقتنع بأن قوة شخصيته وما لديه من صلابة ستجذب إليه الناس وستمكنه من التحدث باسمهم ورفع الظلم عنهم. وافقه **عبد الرحمن** مفصحا عن إيمان أبيه المطلق بالشيخ وكراماته ورجاحة ما يدعو إليه. وعرج بهم الحديث عن الشيخ والمعجزات التي تحققت على يديه فحكى **البختياري** لهما عما جرى يوم التجريدة وكيف استجاب الجبل لدعوة الشيخ و"اتطربق" فوق رؤوس العساكر بينما لم تمس جلاميده الفلاحين الذين احتموا بما تساقط حولهم من صخور. استفاض **البختياري** في وصف قدرة الشيخ **الطيب** على تحويل الطين إلى رصاص وحديد، وكيف أنه قبل المعركة حول صناديق كاملة من كرات الطين إلى رصاصات لقربينات أنصاره. ردّ عليه **عبد الرحمن** ساردًا ما سمعه

من الناس عن الرصاصات التي كانت تحيد بعيدًا عن الشيخ رغم تركيز العساكر نيرانهم على الصخرة التي اعتلاها أثناء القتال. انتهى اللقاء بحديث طويل **للبختياري** عن النصر الذي سيتحقق قريبًا وكيف أنه أرسل عيونه وجواسيسه إلى القرى الشمالية لاستكشاف نقاط الضعف في دفاعاتها. عندما عبر **مقدام** عن تخوفه من الحملة الشعواء التي يشنها العُمد للقبض على أنصار الشيخ **الطيب**، ضحك **البختياري** وكشف لهما عن استخدامه لعدد من الذعار والأوباش لكي يحملوا إليه الأخبار دون أن يشك فيهم أحد.

في تلك الليلة بعد أن تركهما **البختياري** كان التعب قد بلغ **بمقدام** مبلغه فنام لأول مرة في المنضرة، ومع أول ضوء للنهار تنبه إلى أصوات خربشة. جلس في فراشه ونظر حوله فرأى مئات العقارب تسعى فوق أرضية الغرفة. نادى على **عبد الرحمن** الذي كان يغط في النوم وحذره من أن يطأ الأرض بقدمه دون ارتداء خُفّه، ثم أمسك بشومته وأخذ يهرس بطرفها العقارب فيصدر عنها طرقعات أسعدته هو وصاحبه. بعد أن طهرا غرفتهما من العقارب خرجا إلى ساحة الدار حيث التقى بهما **البختياري** وكشف لهما أن العقارب تظهر فجأة وتغزو المنضرة من حين لآخر لفترة لا تدوم أكثر من يوم واحد. لا يعرف من أين تأتي وإلى أين تذهب، أحد المشايخ أخبره أن البيت تحته كنز مرصود، إلا أنه يعتقد أن داره أقيمت فوق أنقاض لمعبد قديم يحميه الملك العقرب. أراد أن يبرهن على ذلك فأخذهما إلى الخارج

وأشار إلى بعض أحجار الأساس التي تحمل رسوما فرعونية.

جلس الصديقان في إحدى غرف الطابق العلوي ليتناولا إفطارهما مع **البختياري** بينما وقف أحد عماله قرب الباب ليدوس بعصاه العقارب التي تتسلل إلى الغرفة. أسهب البختياري في كلامه عن ضرورة الإسراع بغزو القرى الشمالية وكيف أنه أرسل إلى الشيخ **الطيب** طالبا منه المدد، ثم تناقش معهما فيما يمكنهما عمله لمساعدته في استقطاب أهالي تلك المناطق وإقناعهم بأهداف الثورة.

نادى **البختياري** على كاتبه **ناتو السوداني** لكي يملي عليه مكتوبا من **عبد الرحمن** إلى **حسين العقالي** يدعوه إلى تأييد الشيخ **الطيب** وانضمام أهل قريته إلى الثورة. دخل **ناتو** بجسده النحيل وجلبابه الأبيض. ألقى التحية على الحاضرين ثم أقعى في ركن بعيد وأمسك بقرطاسه وقلمه. **عبد الرحمن** شرح **للبختياري** صعوبة التعامل مع **عبد العال العقالي** لأنه لن يهادن الشيخ **الطيب** مهما حصل. **البختياري** من ناحيته أكد على أهمية "كفر العقال" لأنها تمثل أقوى المعاقل المؤيدة للحكومة في البر الشرقي، وأوضح له أنها لو سقطت فستتبعها كل القرى الأخرى من "الريانية" إلى "البداري" شمالا. في وسط الكلام عاد **البختياري** مرة أخرى إلى الحديث عن نقص المواد الغذائية وضرورة التحرك بسرعة لحل هذه المشكلة قبل أن ينفذ ما لديهم من مخزون.

طال النقاش حتى الضحى عندما دخل **ميمون القراد** الذي بعث به **عبد الكريم مشهور** لكي يطلب عودة **مقدام** فورا إلى "الشيخ جابر" بعد

أن وجدوا شريكه **حسون الموزون** مذبوحا بجوار الضريح. هبّ **مقدام** واقفا وصرخ غير مصدق:

– لكنه أخبرني أنه سيغادر "الشيخ جابر". كان من المفروض أن يترك العمل في ترميم الضريح ويرحل في نفس اليوم الذي جئت فيه إلى هنا.

أجاب **ميمون القراد**:

– وجدوا جثمانه خارج حجرته بجوار الضريح. لقد كان يعمل بهمة خلال الأيام الفائتة لينتهي من إعادة بناء القبة.

عبد الرحمن أدرك على الفور أن **مقدام** كان هو المقصود بهذا العمل الإجرامي وأن سره قد انفضح. تساءل في توتر:

– وهل قبضتم على القاتل؟

أضاف **ميمون القراد** في صوت محايد:

– **أولاد عمران** حلفوا على المصحف بأنهم سيثأرون ممن ذبح ضيفهم. أما **المشاعلي** فقد أقسم للعمدة بأنه سيجد القاتل مهما طال الأمد، ونصحه بضرورة استجواب **مقدام** للتعرف إليه إذا كان للقتيل خصومات أو عداوات.

ردّ **مقدام** بانفعال:

– أهذا يطلب العمدة مني العودة إلى "الشيخ جابر"؟

حزن **مقدام** لمقتل صديقه الذي لازمه منذ سنوات عديدة والذي لم يتوان لحظة عن إسداء النصح له وتعليمه كل ما يعرفه عن صنعة البناء وعن الحياة. لن ينسى حرص **حسون** على سلامته منذ أن جاءا إلى "الشيخ جابر".

لقد دفع حياته ثمنا لإخلاصه لصداقته وحبه لعمله. تزاحمت الأفكار في ذهن **مقدام** ولم يعد قادرا على تحديد ماذا يمكنه أن يفعل. بالتأكيد **المشاعلي** يريده في "الشيخ جابر" لكي يتخلص منه، لا شك لديه في ذلك. يمكنه الهرب إلى "كفر العقال"، لكن مثل تلك المحاولة محفوفة بالمخاطر التي صارت تهدد كل من يحاول العبور إلى القرى المناهضة للشيخ ولانتفاضة أهالي "القاو" وأرض الجزيرة. لقد تضاءلت خياراته لأنه لو حاول الهرب إلى القرى الشمالية فسيلصقون به تهمة التجسس لحساب الثوار، ولو عاد إلى "الشيخ جابر" سيقتله **المشاعلي**.

لا يدري إن كان مقتل **حسون** قد وقع بالخطأ أم أنه فخ نصبه **المشاعلي** للإمساك به. طلب التحدث إلى **عبد الرحمن** وعندما انفرد به أبدى صاحبه شكوكه هو الآخر وعرض على **مقدام** بأن يبعث برسالة مكتوبة إلى جده يخبره فيها بعدم وجود أعداء **لحسون الموزون**، وبالتالي لا توجد ضرورة لرجوع **مقدام** إلى "الشيخ جابر". عندما عادا إلى الغرفة كان **البختياري** يتحدث إلى **ميمون القراد** الذي تجهمت ملامح وجهه وظهر الغيظ الشديد في نظراته. اقترح **عبد الرحمن** إرسال مكتوب إلى "الشيخ جابر" يبين فيه **مقدام** أن **حسون** لم تكن له خصومة مع أحد، لكن **البختياري** ردّ في نبرة حازمة:

– يجب أن يعود **مقدام** إلى "الشيخ جابر" للتحقيق في الأمر، ربما يكون للجريمة أبعاد أخرى غير مقتل **حسون**. الأمر أخطر بكثير من مجرد جريمة قتل.

أشار **البختياري** إلى الرسول واستطرد متحدثا إلى **عبد الرحمن**:

– **ميمون القراد** سيرافق **مقدام** في رحلته من هنا إلى "الشيخ جابر"، أما أنت فستبقى معي حتى نجد حلا لما يجب عمله مع **عبد العال العقالي**.

اعترض **عبد الرحمن**:

– **مقدام** لا دخل له بجريمة القتل، لقد كان معنا هنا في "الريانية" منذ خمسة أيام.

نظر **البختياري** إلى **مقدام** وفاجأ الجميع بقوله:

– لكنه كان يتسلل كل ليلة إلى خارج المنضرة ولا يرجع إلا مع شقشقة النهار.

بُهِتَ الصديقان ولم يتمكنا من الرد. **ميمون القراد** تقدم بجسمه الربع وعضلاته المفتولة نحو **مقدام** وأضاف في ثقة:

– العمدة بعث برسالة إلى "قاو الكبرى" ليستشير الشيخ **أحمد الطيب** في الأمر، فردّ بضرورة التحقيق مع **مقدام**، لأن لو صدق حدسه فإن هذه الجريمة قد تكشف خطرًا كبيرًا على كل القرى المتمردة.

لم يستطع **عبد الرحمن** الاستمرار في محاولة إقناع **البختياري** ببقاء صاحبه في "الريانية" وتحير فيما يجب عليه قوله. ترسخت لديه قناعة لا شك فيها بأن عدم التدخل الآن يعني إرسال صديقه إلى حتفه.

قبل أن يجد فرصة للدفاع عن صاحبه، تقدم **مقدام**، الذي أدرك أنه هالك لا محالة، وقال مخاطبًا **ميمون القراد**:

– سأذهب معك إلى "الشيخ جابر"، فليس لدي ما أخفيه.

توجه **البختياري** بكلامه إلى **ناتو السوداني** طالبًا منه كتابة رسالة إلى العمدة **عبد لكريم** يخبره فيها بتطورات الأمور في "الريانية" ويشرح له الدور الذي سيلعبه حفيده **عبد الرحمن** في استمالة أهالي "كفر العقال" وحثهم على الانضمام إلى الثورة.

***

جريس الجاوي

في حياة كل منا لحظة فارقة، لحظة نفهم فيها المعنى الحقيقي لوجودنا ونستوعب الأسباب التي تدفعنا للقيام بما لا يمكننا تجنبه. في تلك اللحظة الفريدة تتزامن حركة كل الخيوط فينتج عنها محصلة لا فرار منها وتقودنا إلى مصير تكتنفه ظلال وخيالات.

طلع **مقدام** مع **ميمون القراد** إلى أول الطريق الموصل إلى "الشيخ جابر". أحاط النخيل بجانبيّ ترعة "القاو". سكنت الريح لكن التراب ظل عالقا في الهواء. غطى **مقدام** أنفه بطرف شاله وحمل صرة هدومه على كتفه. سار بخطوات ثابتة بينما ظل ذهنه مشغولا بما سيفعله عندما يصل إلى "الشيخ جابر". سأل رفيقه:

– من أين حصلت على ذلك الاسم العجيب؟

– ألا يعجبك اسم **ميمون القراد**؟

– لا أبدًا! لكني استغرب اسمك الذي لا يتلاءم مع قوتك البدنية.

قهقه وقال في صوت أجش:

– في شبابي اشتغلت "قرداتي"، ألف وأدور بين القرى وأقدم عروضي مع قرد ابن عفريتة، كان يستطيع القيام بكل الحيل والألعاب.

– لا أصدق ما تقوله.

– لقد اشتهرت عروضي عبر قرى المديرية كلها، حتى أطلق الناس عليّ اسم **ميمون القراد**. وبصراحة، استلطفت الاسم فاحتفظت به.

– لماذا لم أرك من قبل في "الشيخ جابر"؟

– لقد كنت في "بولاق" أعمل في صناعة المراكب.

في منتصف الطريق بين القريتين أومأ **ميمون** إلى سكة ضيقة متجهة نحو الجبل مبينًا أنها أقصر الطرق إلى "الشيخ جابر":

– يمكننا الصعود في اتجاه الجبل وبعد ذلك نسير في الدرب المحاذي له. سيأخذنا هذا الطريق إلى "الشيخ جابر" في زمن أقل.

لم يطمئن **مقدام** إلى فكرة الذهاب من طريق الجبل. يعرف خطورة ذلك، خاصة إذا تربص به رجال **المشاعلي**. سيصبح من السهل الإيقاع به والتخلص منه عندما يقتربا من الجبل. لم يكن أمامه سوى رفض الصعود إلى ذلك الدرب، خاصة أنه يجهله ولا يعرف معالمه. خلال الثواني التي انشغل باله بهذه الشكوك خطر له أن **ميمون القراد** قد يكون القاتل وأنه

جاء إلى "الريانية" ليتخلص منه. لماذا يمتهن رجل **كميمون** مهنة "القرداتي"، بينما تتيح له قوته الجسمانية فرصا أفضل ليكسب عيشه. ارتاب **مقدام** في أن **المشاعلي** هو الذي أرسل **ميمون** وليس **عبد الكريم مشهور**، وفي لحظة كاشفة ربط بينه وبين مقتل **حسون**. تسمر **مقدام** في مكانه ولم يتحرك. كانت أول ردة فعل له هي رغبته في أن يتراجع ويسرع بالهرب. لكن فكرة الانتقام من **المشاعلي** منعته من الفرار، كيف سيأخذ بثأر أبيه من **المشاعلي** إذا كان يخشى **ميمون القراد**.

ناداه **ميمون** ملوحا بذراعه لكي يتبعه فلم يتحرك. في هذه اللحظة أحس **مقدام** بلدغة في عنقه وبألم حاد، رمى الصرة التي كان يحملها فرأى عقربا يزحف بين طياتها في الوقت الذى تقدم **ميمون** نحوه ممسكا بسكين في يده. لمعان النصل الحاد أفزعه فاستدار وبدأ يجري بأسرع ما يمكنه. سمع وقع خطوات آتية من الخلف وصوتا يطالبه بالتوقف. نظر إلى الوراء فرأى **ميمون** يعدو نحوه محاولا اللحاق به. زعق بعلو صوته مستنجدا لكن لم يكن هناك مخلوق في الحقول القريبة. سمع صوتا يناديه:

– قف يا **جساس**! لا تخف.

سالت حبات العرق فوق جبينه وزاغ بصره. لم يدر إن كان إحساسه بالوهن كان نتيجة لخوفه من **ميمون** أم بسبب لسعة العقرب، ولم يعرف إن كان الرجل يناديه فعلا **بجساس** أم أنه يهذي.

بدأ يتعثر في خطوه وكاد أن يقع أكثر من مرة. أدرك أنه سينتهي لو سقط على الأرض، سيذبحه **ميمون**، لم يكن لديه شك في ذلك. استجمع كل

ما يملك من عزم للدفاع عن نفسه، لكن قدمه زلت وتدحرج على حافة الجسر حتى استقر على ظهره في غيط للقمح. رفع رأسه باحثا عن **ميمون** فرآه يهبط جانب الجسر رافعا يده الممسكة بالسكين. عندما وصل بالقرب منه توقف وتأمل **مقدام** الراقد على ظهره، ثم اقترب بحذر وانحنى فوقه، لكن **مقدام** ركله فجأة في بطنه. الضربة القوية أصابت **ميمون** فسقط على جنبه بينما هبّ **مقدام** واقفا. على الرغم من إحساسه بالوهن إلا أنه تمكن من تسديد ركلة ثانية إلى كتف غريمه، فسقط السكين من يده. بسرعة وثب **مقدام** إلى الأمام والتقط السكين ثم بَرَك فوق غريمه. رفع ذراعه وانهال بالسكين على **ميمون** الذي أمسك برسغه قبل أن يصل نصل السلاح إلى جسمه. حاول **مقدام** بكل ما يملك من قوة أن يدفع السكين إلى صدر **ميمون**، لكن قبضة غريمه الحديدية أزاحت يده بعيدا. دام الصراع بينهما ثوان قليلة بعدها بدأ العرق يتصبب من حنايا جسم **مقدام**، ضربات قلبه تسارعت وقبضته على السكين أخذت تهن وتضعف. دفعه **ميمون** بركبته ففقد توازنه، وقبل أن يقف **ميمون** أعقب ضربته بركلة قوية أسقطت **مقدام** على ظهره.

أحس **مقدام** بإعياء شديد وكَلَّ بصره قبل أن يلمح خيال غريمه ينهض من على الأرض. في هذه اللحظة أظلمت الدنيا من حوله ولم يعد يسمع سوى خطوات **ميمون** وهو يتقدم نحوه.

أحس بسنابل القمح تداعب وجنتيه وهو مستلق على ظهره، رفع رأسه ورأى جمع كبير من الرجال ينظرون إليه ويهمسون بكلمات غير مفهومة،

فجأة انزاح الناس ومرت **جنات** من بينهم حتى وصلت إليه وقالت:

– هذا ليس **حسون**! إنه **جساس**، لقد ذبحوا **جساس**.

***

لمس عنقه فأحس بسائل لزج يبلل أصابعه. لا يمكن أن يكون هذا دمه، فهو لا يشعر بأي ألم، لكنه ما زال واعيا بما يدور حوله.

فتح عينيه فرأى **يوأنس المداوي** يدعك محل اللسعة بمرهم دافئ. تفحص الغرفة فلم يعرف أين هو، ولم يفهم ماذا جاء به إلى ذلك المكان. قال في وهن:

– ماذا جرى؟ أين أنا؟

ربت الراهب على كتفه وقال:

– لقد نجوت من موت محقق. الرب يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شيء آخر، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد.

– من المفروض أن أعود "للشيخ جابر" لأساعد العمدة في العثور على قاتل **حسون** ولكي أفهم ماذا جرى له.

أضاف **يوأنس المداوي** ناصحا:

– لا دخل لك بمقتل **حسون**. لقد كنت في "الريانية" عندما حدث ذلك. استرح ولا تترك الفراش، فأنت أضعف من أن تتحرك. على الأقل أنت هنا في أمان.

– **وميمون القراد؟**

مسح الراهب بكفه على جبهة **مقدام** وقال:

– لا أعرف عمن تتكلم، لكنك سلكت معي سبيل الرحمة والمحبة، ولذلك يجب أن أعتني بك وأرعاك.

تأمل **مقدام** الغرفة فرأى أيقونة للعذراء معلقة على الحائط المقابل وإبريقا نحاسيا وطستا للغسيل موضوعين فوق طاولة موجودة بجوار الباب. دخل رجل حليق الرأس مرتديا جلبابا رصاصي اللون وتحدث إلى الراهب مستفسرا عن حال المريض. رفع **مقدام** رأسه وتساءل في صوت خافت:

– ومن هذا؟

ضحك الرجل وقال:

– لقد أفاق صاحبك أخيرا. يسألني من أنا وهو ضيف في بيتي منذ يومين! يبدو أنه يتماثل للشفاء. باركك الرب يا أبانا **يوأنس**.

عقب الراهب في عجالة:

– هذا **جريس الجاوي**. إنك ضيف في بيته.

– لكن كيف جئت إلى هنا؟

ردّ **جريس الجاوي**:

– أبونا **يوأنس** جاءني لعلاج ابني من لدغة حية. وقرب الظهر أتى رجل ليخبره بما أصابك. عندما عرف أبونا أن عقربا لسعك في عنقك، أخذ حماري وأسرع إلى المكان الذي وصفه الرجل. عثر عليك هناك فحملك على الحمار ورجع بك إلى هنا.

اقترب **يوأنس المداوي** من **مقدام** وهمس في أذنه:

– **عبد الرحمن مشهور** جاء إلي وأخبرني بأن عقربا لسعك في عنقك، لكني لا أفهم سر الكدمات التي تغطي وجهك وجسمك، كأنك تعاركت مع أحدهم.

أغمض **مقدام** عينيه فأحاطت به ظلمة رحيمة. لم يستطع تذكر تفاصيل ما جرى له، لكنه عرف أن **عبد الرحمن** قد أنقذ حياته.

***

ناتو السوداني

كثرت الأقاويل في "الشيخ جابر" و"النطرة" عن **حسون** وأنه لم يكن هو المقصود، كما انتشرت الشائعات أن **المشاعلي** أرسل **ميمون القراد** إلى "الريانية" لكي يقتل **مقدام**. عندما وصل هذا الكلام إلى **جنات** فزعت من الخبر، وبعثت على الفور بأخيها الأصغر إلى زوجها لكي يحذره، لكنه وصل إلى هناك بعد أن غادر **مقدام** "الريانية" في صحبة **ميمون**. وقع النبأ كالصاعقة على **عبد الرحمن** فانطلق لكي يلحق بصاحبه. تعاظمت شكوكه تجاه **البختياري** فأراد أن يبقي خروجه سرا، وأمر شقيق **جنات** بأن يستلقي في فراشه حتى يعود إليه ثم قفز من نافذة حجرته.

غطى **عبد الرحمن** وجهه بطرف شاله وتسلل من خلال الطرق الخلفية

للقرية التي خلت من المارة بعد أن أغلق الأهالي نوافذ وأبواب بيوتهم مع اشتداد الريح وتزايد الأتربة. عندما وصل إلى المفترق المؤدي إلى الدرب الموازي للجبل، رأي رجلين يتعاركان فأسرع نحوهما وحصلهما في اللحظة التي وقف فيها **ميمون** رافعا سكينه بينما كان **مقدام** ممددا أمامه على ظهره. ناداه **عبد الرحمن** فاستدار **ميمون** وتقدم نحوه شاهرا سكينه. سأله ماذا يجري فلم يرد عليه. توجس **عبد الرحمن** شرا فخبط بشومته ذراع **ميمون** الممسكة بالسكين وأعقب ذلك بضربة قوية على رأسه فأرداه صريعا. سقط الرجل بين سنابل القمح وسالت دماؤه فوق التربة السوداء. تفحص **عبد الرحمن** صديقه الذي كان يهذي بكلمات غير مفهومة، حاول أن ينهضه ففشل. بلل شاله بماء مَسْقَى قريبة ومسح جبين **مقدام** الذي كان يتفصد عرقا. وعندما همّ بمسح عنقه اكتشف مكان لسعة العقرب. أيقن في تلك اللحظة خطورة حالته ولم يجد بدا من الاستعانة **بيوأنس المداوي** فهو يعرف كيفية تطبيب سموم العقارب والثعابين، كما أنه الوحيد الذي يمكن استئمانه على **مقدام**.

رمى **عبد الرحمن** جثمان **ميمون القراد** في الترعة ثم عاد إلى صاحبه وحمله فوق ظهره حتى وصل به إلى نخلة نمت في بطن جسر الترعة ونبتت فسائلها حول جذعها فكونت ساترا طبيعيا يحمي صاحبه من الريح وفي نفس الوقت يخفيه عن أنظار المارة. **عبد الرحمن** ترك **مقدام** بجوار جذع النخلة، وأسرع إلى "عزبة الأقباط". هناك سأل عن **يوأنس المداوي**، فعرف أن الراهب

موجود في منزل **جريس الجاوي**. ذهب إليه وشرح له حالة **مقدام** الخطرة ووصف الطريق إلى مكانه، ثم استأذن منه وأسرع بالرجوع إلى "الريانية". استعار **يوأنس** حمار **جريس الجاوي** واتبع تعليمات **عبد الرحمن** حتى عثر على **مقدام** في المكان المحدد، انحنى فوقه فسمعه يئن في صوت خافت، بينما كان العرق يغطي بدنه وجبينه المشتعلان بالحمى. عندما فحصه أدرك خطورة حالته فحمله على ظهر الحمار وأخذه إلى بيت **جريس الجاوي** حيث كان يحتفظ بالمراهم والأعشاب التي جلبها لعلاج ابنه.

حتى لا يثير الشكوك عاد **عبد الرحمن** على الفور إلى "الريانية" فاكتشف أن حالة شديدة من الاضطراب قد استشرت بين الأهالي بعد عثور أحد الفلاحين على جثة **ميمون القراد** طافية في الترعة. طلب **عبد الرحمن** مقابلة **البختياري** فدعاه للقدوم إلى دار الفلاح الذي وجد جثمان **ميمون**، وهناك رأى زحاما شديدا وشاهد جمعا كبيرا من الأهالي. شق طريقه بينهم نحو **البختياري**، فرآه جالسا وسط الناس، ممسكا بمنشة يطرد بها الذباب، وإلى يمينه **ناتو السوداني** الذي انشغل بتدوين أقوال الشهود من الفلاحين. من حين لآخر يشتد الصخب كلما تحمس الحاضرون لأمر ما وتحدثوا جميعا في آن واحد، وفي كل مرة كان **البختياري** يرفع ذراعه طالبا منهم أن يسكتوا حتى يستطيع الاستماع إلى التفاصيل التي يحكونها. غلب الغضب الشديد على **البختياري** وأولى اهتماما كبيرا لأقوال الشهود. لكنه عندما رأى **عبد الرحمن** قام على الفور وأمسك بذراعه ثم سحبه إلى ركن من الغرفة. سأله في حدة:

– أين صاحبك **مقدام**؟ لقد قتل مرسال جدك وفر إلى "كفر العقال". لن يفعلها أحد غيره.

أطرق **عبد الرحمن** ولم يرد. استطرد **البختياري** قائلا:

– أنا واثق من أنه جاسوس هو وصاحبه **حسون**. لا بد أن أحدهم قد اكتشف سرهما.

تساءل **عبد الرحمن**:

– هل رأى أحد **مقدام** وهو يرتكب جريمته؟ وهل تعتقد أنه تخلص من **ميمون** وهما في طريقهما إلى "الشيخ جابر"؟

ردّ **البختياري** في غضب:

– كل الدلائل تشير إلى أنه القاتل. لقد كانا وحدهما في الطريق إلى هناك. العاصفة الرملية أبقت الناس في دورهم فلم يرهما أحد.

– ربما تخلص القاتل الحقيقي من الاثنين معا، لكننا ببساطة لم نعثر إلا على جثمان **ميمون القراد**.

– إذا لم نعثر على **مقدام** فسأبعث بك مع **ناتو السوداني** إلى **عبد العال العقالي** للسؤال عنه والمطالبة بتسليمه.

أجابه **عبد الرحمن** في حيرة:

– ومن يضمن لنا وجوده هناك؟ وهل تدرك مدى خطورة ذهابي إلى "كفر العقال"؟

– لن أجد من هو أفضل منك. فالعمدة **عبد العال** لن يؤذيك مهما حصل. سأرسل معك **ناتو السوداني** لكي يحمل إليه مكتوبا أطالبه فيه

بالانضمام إلى صفوفنا. لو غضب من كتابي له سيحتجز **ناتو** ولن يمسك أنت بسوء.

وصل **عبد الرحمن** مع **ناتو السوداني** إلى مشارف "كفر العقال". ظهر عدد من الخفراء الذين يحرسون مداخل القرية. **ناتو** نبهه إلى السمرة الداكنة لهؤلاء، مشيرا إلى أنهم رجال **همام بك** من "ساحل سليم".

– انظر إليهم! **همام بك** جلب جيشا من الرقيق الأسود من السودان وفرض بهم سطوته على منطقته في "ساحل سليم"، واستكثر أفراد عائلته ممن "ملكت إيمانهم" فغلبت عليهم الدماء الحارة وأصبح أبناؤهم سودا كالزنوج.

أقبل عليهم عملاق داكن البشرة ممسكا بشومة غليظة دعم طرفها بطبقة سميكة من قطع الجلد المثبتة بمسامير حديدية. سألهما عن اسميهما وغرض قدومهما إلى "كفر العقال". قبل أن يجيب **عبد الرحمن** أحاط بهما خمسة رجال أقوياء تبدو عليهم علامات الريبة. شرح لهم **عبد الرحمن** أنهما يريدان مقابلة العمدة **عبد العال**، وأنهما قادمان من "الريانية" لتوصيل مكتوب له من **البختياري**.

سبّ الرجال **البختياري** ولعنوا الشيخ **الطيب** واليوم الذي جاء فيه إلى أرض الجزيرة لكي يضلل الفلاحين ويحرضهم على التمرد في وجه الحكومة. أمسكوا **بعبد الرحمن** وأرادوا تقييده فصاح فيهم بأنه نسيب **العمدة** ويريد مقابلته لأمر هام. خشي الرجال غضبة العمدة فقام أربعة منهم باصطحابهما إلى دار **عبد العال العقالي** وهناك سلموهما إلى حراسه الذين تحفظوا عليهما في غرفة صغيرة عند مدخل البيت. بعد نصف ساعة

انفتح الباب ودخل العمدة **عبد العال**، احتضن **عبد الرحمن** مرحبا به وفي الوقت ذاته نظر إلى **ناتو السوداني** في ريبة مستفسرا عن هويته، فسلمه مكتوب **البختياري** الذي لم يفضه العمدة. نظر إلى **عبد الرحمن** وسأله عن أبيه وجده وعمه **مصطفى**. ترك **ناتو** مع حراسه في الغرفة وأخذ **عبد الرحمن** إلى المنضرة حيث أمر خدمه أن يعدوا لهما الطعام. أشار **لعبد الرحمن** لكي يجلس أمامه وقال:

– لقد بعثت إلى أختك لكي تحضر هي وحسين. الأحوال بصراحة لا تسر. هذا الشيخ المخبول أفسد عيشتنا.

– لقد جئت إليك باحثا عن شخص يدعى **مقدام** جاء إلينا من "التناغة" ويعتقد **البختياري** أنه ارتكب جريمة قتل وفر إلى قريتكم.

قهقه العمدة وقال:

– **وثاب البختياري** رجل شكاك بطبعه، ودائما يعتقد أن الناس كلها تتآمر ضده وضد شيخه. لا لم يحضر سي **مقدام** هذا إلينا. أكيد قال لك **البختياري** أن ذلك الرجل هو أحد جواسيس الحكومة.

– سأكون صريحا معك، أنا شخصيا لا أظن أن **مقدام** ارتكب تلك الجريمة، وأعرف أنه لم يحضر إلى قريتكم، لكني قبلت بهذه المهمة لكي ألتقي بأختي **فاطمة**.

– ستلتقي بها فورا. لكني أردت أن أتحدث إليك عن موقف أبيك المناصر لذلك الشيخ المخرب. رجل مخبول **كأحمد الطيب** ليس لديه ما يفقده، لكن عائلتك خسارتها ستكون فادحة.

– أبي ضج بتعسف حكومة الخديوي وتقصيرها في مساعدة الأهالي

رغم الظروف الصعبة التي تمر بها المنطقة. لقد زادت الضرائب لدرجة أن الفلاحين هجروا أراضيهم. أبي يعتقد اعتقادا راسخا بأنه يقف مع الحق ضد الظلم.

– أبــوك بأفعالــه تلك يدمــر عائلته وناســه. لقد تحدثت إليه مرارا بلا جدوى. هل تنوي العودة إلى "الشيخ جابر"؟

– مهما حصل، لا يصح أن أترك أبي وناسي.

– لماذا لا تتحدث إليه؟ ربما أصغى إليك واستمع لنصيحتك. أعرف أن الأحوال ساءت بعد الحصار وأن الجوع انتشر بين الأهالي.

أحس **عبد الرحمن** بأسئلة العمدة تحاصره ولا تترك له منفذا. يعلم بحرج موقف القرى المتمردة ورغم ذلك لا يريد أن يقر بحقيقة أحوالهم الصعبة ولا يجد بدا من الوقوف مع أبيه وأهله. لقد تعقدت الأمور بعد هزيمة مدير "جرجا" وأصبح من الصعب تفادي المواجهة الحتمية مع الحكومة بكل ما قد تجلبه من دمار وخراب.

وضع أحد الخدم "طبلية" كبيرة أمامهما وبدأت أنواع شهية من الطعام تتوزع فوقها. دعاه العمدة **عبد العال** لكي يأكل معه، وقال وهو يفسخ صدر أوزه سمينة ويقدمها له:

– أعتقد يا **عبد الرحمن** أنك تعي ما أريد قوله. أنا كنت دائما صديقا مخلصا لأبيك حتى قبل أن نرتبط بأواصر المصاهرة. أبوك رجل بحق وأخشى عليه من الدمار الذي سيحل ببلدتكم. لقد وصلت أورطة من الفرسان إلى "أسيوط" قادمة من "المنيا"، ويقال إن الخديوي **إسماعيل** قد

أرسل البواخر المحملة بالعساكر والمدافع تحت قيادة **فاضل باشا** مفتش عام الصعيد و**إسماعيل باشا أبو جبل** ناظر الحربية. عد إلى "الشيخ جابر" وانقل هذه المعلومات إلى أبيك فربما ثاب إلى رشده واستوعب خطورة الموقف قبل أن تقع الفاس في الراس.

أدرك **عبد الرحمن** الوضع الحرج لأهله وخطورة الموقف على ناسه. لكن ماذا يستطيع عمله؟ فلقد زادت المواجهات لدرجة لا يمكن تدارك عواقبها. المجابهة بين الطرفين صارت حتمية ولا يمكن تجنبها. تساءل **عبد الرحمن** في ضيق:

– من أخبرك بهذه المعلومات الخطيرة؟ وكيف تفصح عنها هكذا ببساطة؟

نظر إليه العمدة في اندهاش:

– أنت رأسك ناشفة كأبيك. لكن أنت حر، فصدق ما شئت وانكر ما شئت. لقد أخلصت دائما لصداقتي مع أبيك ولذلك كشفت لك عن معلومات حربية لا يصح أن أفصح بها لأحد. ربما تكون هذه فرصتنا الأخيرة لكي نتجنب كارثة لن تُبقي على أحد.

– لا أدري يا عمي، لا يمكنني حل كل تلك المعضلات والمشاكل التي تعاظمت نتيجة للمواجهات الأخيرة.

لم ييأس **العقالي** وعاد إلى محاولته لكي يقنع **عبد الرحمن** بوجهة نظره:

– هل رأيت رجال **همام بك** الذين ملأوا الطرقات. كل عُمد وأعيان الناحية بعثوا برجالهم للوقوف مع عساكر الخديوي ضدكم. لا أمل لكم!

كل غرضي مما أقوله لك هو أن تدرك مدى تردي وضعكم، وأن تقنع أباك بضرورة تغيير موقفه.

هزّ **عبد الرحمن** رأسه نافيا قدرته على فعل ذلك:

– أبي لـن يبـدل موقفـه مهـما حصـل، أمـا أنـا فسـأقف معـه، لا أملك خيارا آخر.

نظر إليه **العقالي** وقال في نبرة آسفة:

– ألم أقل لك أن دماغك ناشفة كأبيك؟

أكملوا طعامهم في صمت وعندما انتهوا فض **عبد العال العقالي** رسالة **البختياري** وقرأها باهتمام. رمقه **عبد الرحمن** متوجسا من ردة فعله. نادى العمدة على أحد الخدم وطلب منه إحضار **ناتو السوداني**. في تلك اللحظة دخل عليهما **حسين العقالي** الذي تقدم نحو **عبد الرحمن** وعانقه معبرا عن ترحيبه به، ثم سأله إن كان يريد الذهاب معه إلى داره لكي يلتقي بأخته **فاطمة**:

– أختك لم تصدق أنك جئت بنفسك إلى "كفر العقال"، تكاد تطير من الفرح. هي تنتظرك على أحر من الجمر، وتتشوق لرؤيتك لكي تطمئن منك على أحوال العائلة.

عقب **عبد الرحمن** قائلًا:

– كم أحب لقاءها والتحدث إليها. لا بد أنها قلقة بسبب الظروف الصعبة التي نمر بها.

قبل أن يذهبا دخل **ناتو السوداني** ووقف أمام العمدة. **عبد العال العقالي**

أطال النظر إليه ثم قال له في نبرة صارمة:

– يبدو أن سيدك **وثاب البختياري** يثق بك ثقة عمياء، هكذا يخبرني في كتابه. ويطالبني كعادته بأشياء عجيبة لم أكن أتصورها. سأتركك تعود مع **عبد الرحمن مشهور** إلى "الريانية"، وهذا هو ردي على رسالته.

ابتسم **ناتو السوداني** وأحنى رأسه. أمر العمدة بإعادته إلى محبسه ليبيت ليلته هناك، على أن يغادر القرية في صباح اليوم التالي بصحبة **عبد الرحمن** الذي سيقضي ليلته في دار **حسين العقالي** مع أخته **فاطمة**.

***

أبو العجب

انتقل **محمود الغريب** مع **شبل السباعي** إلى دير "هرمينا السايح" القابع في سفح الجبل، وذلك للقيام بأعمال المساحة المطلوبة لقريتي "الشيخ جابر" و"النطرة". هناك التقى **بيوأنس المداوي** الذي حكى له عن أحداث الغارة كما شهدها. ذكر **لمحمود الغريب** أن **مقدام** قضى ليلتين في بيت **جريس الجاوي**، لا يكاد يفيق من هلوساته حتى يغيب عن الوعي مرة أخرى. سمعه الراهب يخطرف بأحاديث عن **حسون الموزون** وما أصابه من غبن، يهذي بكلمات غير مفهومة ثم يصرخ بأنه حذره من خطورة الموقف لكنه لم يستمع إليه، وفي أحيان أخرى يزعق بأسماء أشخاص لا صلة بينهم **كزغبر الكلبي وعجيب الزمان وجنات وعبد الرحمن**. ما أزعج

جريس الجاوي حقا كان ترديده المستمر لاسم **حماد المشاعلي**. بعدها تهيب **جريس** مما يقوله **مقدام** وطلب من **يوأنس المداوي** أن ينقله إلى مكان آخر. يومها أخذه الراهب إلى الدير حيث أبقاه هناك يومين لكي يتابع حالته عن كثب حتى يتم شفاؤه ويستعيد عافيته.

بسط الراهب كفيه مشيرا إلى أرجاء الغرفة وقال إن **مقدام** بات في نفس هذه الصومعة التي يستعملها الآن **محمود الغريب** ومساعده. أخبرهما **يوأنس المداوي** أن في صباح اليوم الثالث سُمع دوي المدافع التي صبت حممها على "قاو الشرق" و"النواورة". استيقظ **مقدام** مفزوعا وجاء مسرعا إلى صومعة الراهب. سأله عما يجري فلم يرد. خرج **مقدام** وجري نحو بوابة الدير، لحق به **يوأنس المداوي** فوجده واقفا أعلى التل وهو يرقب الأفق البعيد.

ارتجت الأرض تحت أقدامهما وردد الجبل أصداء الانفجارات. توالى الضرب ولم ينقطع حتى الظهر. **مقدام** الذي أظهر توترا شديدا سأل الراهب عن مكان الشيخ **الطيب**، لكنه لم يعرف إن كان لا يزال في "قاو الشرق" أم أنه يتنقل بين القرى. استفسر منه أيضا عن **المشاعلي**، فأبدى الراهب تعجبه من اهتمام **مقدام** بذلك السفاح.

قبل الظهر بقليل بدأت جموع الفارين من القنابل تظهر على طريق الجسر القادم من الشرق والمتعامد على ترعة "القاو"، وازدحم الطريق بمئات الهاربين من جحيم **فاضل باشا**. من فوق التل شاهدا خليطا من البشر الذين جاءوا سيرًا على الأقدام حاملين الصرر والسلال على الأكتاف

والرؤوس، ومعهم النساء المتشحات بالسواد اللاتي كن يمشين بين أبنائهن ويحتضن صغارهن. هذا الركب العظيم من الناس كان يتقدم ببطء وقد انحشرت وسطهم المواشي والدواب التي اعتلت ظهورها ما يمكنها حمله من متاع.

نزل **مقدام** مع الراهب نحوهم فوصل إلى أسماعهما صخب هذا الجمع البائس وتعالت أصوات النحيب الممتزجة باستغاثات وأدعية وتكبيرات. تقدم الراهب مع **مقدام** نحو القنطرة المقامة فوق الترعة التي تقطع طريق الجسر عند "عزبة الأقباط" فظهر لهما أن أهالي العزبة انضموا أيضا إلى الفارين رغم بُعد قريتهم عن مرمي مدافع **فاضل باشا**. هؤلاء سلكوا الطريق الصاعد نحو الدير حاملين أمتعتهم فوق رؤوسهم وعلى ظهور بغالهم وعرباتهم.

عند القنطرة الضيقة ساد هرج ومرج عظيمين وكأنه يوم الحشر، كان الناس يتدافعون ويتشاجرون، بعضهم يدعون للشيخ بالنصر على أعدائه وآخرون يسبّونه ويلعنونه لما جلبه عليهم من خراب ودمار. ما زاد من صعوبة الموقف كان وصول أفواج الفارين من قرية "النواورة" والذين سلكوا الطريق الآخر الموازي للترعة قادمين من ناحية عزبة "أولاد سالم". انحشر الفارون من القريتين عند تقاطع "الصليبة" فزاد اللغط وارتبكت تحركاتهم.

استوقف **مقدام** الناس وسألهم عما يجري، فعرف أن **فاضل باشا** وصل بقوة عظيمة من العساكر على ظهر سبع بواخر أصلت بنيران مدافعها

القريتين المنكوبتين. استفسر **مقدام** عن الشيخ **الطيب** و**المشاعلي** لكنه لم يتلق جوابًا شافيًا. تباينت الحكايات بين أن الشيخ يحارب ببسالة وسط أنصاره على ضفاف النيل، وبين أنه هرب بجلده نحو الجبل بعد أن تخلى عن أتباعه في "قاو الشرق" وتركهم لمصيرهم تحت القنابل التي أطلقتها المدافع من فوق أسطح البواخر.

قبل الظهر نزل أولاد **مشهور** وأولاد **دويب** نحو "عزبة الأقباط" وهم ممسكون بشومهم وفؤوسهم. استفسروا من الناس عن مكان الشيخ وإن كان من الحكمة الذهاب إلى "قاو الشرق" لنجدته والوقوف معه في وجه تلك الغارة الغاشمة. بعد قليل ظهر **حماد المشاعلي** الذي أعلن أن الشيخ **الطيب** بعث بمراسيله إلى القرى الثائرة لكي يحضر رجالها إلى "الشيخ جابر" في نفس الموقع الذي هزم عنده تجريدة مدير "جرجا" وصنجق الأربعمائة. بدا للجميع أنه يحاول تكرار نفس الخطة التي انتصر بها سابقًا، لكن في الوقت ذاته اتضح لهم أن **فاضل باشا** قد باغته هذه المرة بقصف القرى من فوق أسطح البواخر قبل أن يقوم بإنزال عساكره، فأصاب ذلك الأهالي بالهلع وتفرق أنصار الشيخ. ضرب القرى القريبة من ضفة النهر بالقنابل أربك الجميع ففر الأهالي بلا نظام وأصبح من الصعب تحديد من منهم سيثبت ويحارب ومن سيهرب من المواجهة الفاصلة. وزاد الطين بلة ازدحام الطرق بالناس فصار من المستحيل التواصل بشكل فعال. أضف إلى ذلك اختفاء الشيخ لعدة ساعات مع بداية القصف مما أثر سلبًا في معنويات الناس.

احتل الراهب مكانًا تحت نخلة نمت بالقرب من القنطرة وانشغل بمساعدة الجرحى. **مقدام** تركه وجاس وسط الناس، لكنه ركز كل حواسه في شيء واحد وهو رصد تحركات **المشاعلي** وما يقوم به من أفعال. كأنه اختزل هذا الحشد الهائل من البشر في شخص واحد لا غيره. أصبحت كل مشاعره متربصة **بالمشاعلي** ولم يكن مستعدًا أن يحيد عن الأمر الذي اعتزمه مهما حصل، قرر أن تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة التي سينجز فيها مهمته. لم يعد الأمر مقصورًا فقط على الثأر لأبيه، لكنه سينتقم أيضًا **لحسون الموزون**، معلمه وصديقه الذي لم يبخل عليه بشيء والذي لقنه أسرار مهنته وأفهمه المعني الحقيقي للحياة. أبوه وسيرته ما هي إلا ظلال شكلتها أمه في نفسه بحكاياتها عن حياته وعن يوم مقتله، أما **حسون** فقد كان مرشده ورفيقه الذي عمل معه طوال سنوات حياته التي تبدلت أحوالها بعد رحيله.

خلال تلك اللحظات الصاخبة استحوذ الغضب عليه فشعر كأنه برميل من البارود يوشك على الانفجار. **المشاعلي** الذي يتحرك على مقربة منه هو قاتل كل من أبيه و**حسون**، وهو أيضا من أرسل **ميمون القراد** لكي يذبحه. تعاظم إصرار **مقدام** على الوصول إليه وقتله، ولم يجد في تلك اللحظة ما يحيد به عن هدفه. في خضم المعمعة لم يفعل **مقدام** أي شيء سوى تعقب خطى **المشاعلي** غير مبال بالكارثة التي حلت بالجميع.

بعد الظهر بقليل وصلت أنباءً عن قدوم الشيخ من خلال الدروب التي تتخلل الحقول والغيطان. انتشر الخبر كالنار في الهشيم. وتحمس الكثيرون

للقتال، واسترجعوا ذكريات بطولاتهم يوم هزموا تجريدة حاكم "جرجا". في نفس الوقت توقف القصف مع أذان الظهر، فهدأت النفوس قليلا، لكن سرعان ما استمر الضرب بعد ذلك بصورة متقطعة. علت أعمدة الدخان وأزكمت الأنوف رائحة الحرائق. الجماعات المتأخرة من الفارين حملت معها روايات عن الدمار الرهيب الذي ألحقته القنابل "بالقاو" و"النواورة"، وكذا تناقلوا أنباء عن إنزال عساكر الحكومة بالقرب من "النواورة" التي أبيحت لهم وكيف أنهم يشعلون النيران في بيوتها بعد نهبها، كما أنهم يطلقون الرصاص على من يجدونهم هناك. انتشرت أيضا شائعات تفيد بانقلاب **عثمان الأحدب** على الشيخ وأنه أرسل المراسيل إلى **فاضل باشا** مقدما له فروض الطاعة والولاء، ومعلنا أن رجال قريته مستعدون للقتال في صفوفه ضد المتمردين. ولكي يثبت له صلابة موقفه أرسل رجاله ليهاجموا الفارين من "النواورة"، وقد دارت معارك حامية الوطيس بالفؤوس والعصي خارج عزبة "أولاد سالم" قُتل وأصيب فيها العشرات.

مع زيادة أعداد الجرحى بين الفارين، احتاج الراهب إلى مساعدة **مقدام**. وقف **يؤانس المداوي** بردائه المترب ونظر حوله باحثا عن صاحبه فلم يجده. كان **مقدام** قد ترك الراهب وسط الجرحى وتعقب **المشاعلي** الذي اتجه إلى سفح الجبل ليلتقي **بأحمد الطيب** عند ضريح "الشيخ جابر".

***

اعتاد **شبل السباعي** أن يخرج كل مساء ليتفقد الأماكن التي دارت فيها المعارك بدءًا من الساحة الموجودة خارج أسوار الدير إلى الدرج الصاعد

نحو مغارات "المساخيط" ثم يواصل السير حتى يصل إلى ضريح "الشيخ جابر". دفعه الفضول يوما فارتقى الدرج الصاعد إلى المغارة البحرية حيث اختبأت **جنات**. استعار مصباحا من **يوأنس المداوي** وأفصح **لمحمود الغريب** عن رغبته في صعود الجبل قبل الانتهاء من أعمال المساحة. في ليلة قمراء تسلق الدرج الذي قاده إلى المغارة البحرية. وقف على حافة الصخرة المطلة على الوادي وتفرس في ظلال ما لم ينهدم من بيوت "الشيخ جابر". أشعل مصباحه ودخل المغارة، رفع ذراعه فأنار أركانها وظهرت الرسومات التي زينت الحوائط، وعلى أرضيتها رأى عظاما متناثرة لحيوانات ميتة.

قرب **شبل** مصباحه من الجدران وبدأ يتفحص الرسومات. نساء يحملن القرابين وهن يتوجهن إلى سيد المقبرة الذي جلس فوق عرشه في وقار وعزة. على الحائط المقابل شاهد رسوم من الحياة اليومية تمثل رحلات لاصطياد الأسماك وطقوس ذبح الأبقار وصلوات العباد أمام مزار مقدس وكهنة يحرقون البخور تبجيلا للآلهة وصفوف المحاربين الذاهبين إلى المعارك. سمع صخب الصيادين وترانيم القُداسات وخُوَار البهائم وصيحات الجنود قبل لقاء الأعداء. على الحائط الشرقي رأى بعض الصلبان المحفورة ورسمًا لأيقونة تمثل العذراء محتضنة يسوع المسيح ويتقدمهما القديس يوسف ساحبا الحمار الذي جلست فوقه السيدة مريم وطفلها.

ضوء القمر الفضي المتسرب من فتحة المغارة أضاف رونقا على الأحاجي التي ارتسمت على الجدران. أحس بشيء يتحرك في الخارج فاستدار عندما سمع من يقول:

– **جساس**... **جساس** ماذا أتى بك إلى هذا المكان؟ وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل.

تلفت حوله فرأى ظل رجل واقفًا في مدخل المغارة. أخافه وجود شخص غريب في هذا المكان المهجور. ماذا سيفعل إن كان هذا الرجل أحد المجرمين أو قطاع الطرق. تراجع فزعا وأسند ظهره إلى الحائط لكنه سمع ضحكة مألوفة وصوت يقول:

–لا تخف، أنا **أبو العجب**. لقد رأيتك تصعد الجبل فلحقت بك.

قهقه **شبل** بصوت عال وعقب في ارتياح:

– أخفتني يا رجل! لكن لماذا تناديني **بجساس**؟

– أردت فقط أن أمازحك! أنت بالطبع تعرف حكاية **جساس** و**مقدام**.

– بالطبع أعرفها! ألم أشهد عروض الخيال عن الغارة؟

اقترب **أبو العجب** من **شبل السباعي** فمحى نور المصباح الظلال التي أخفت ملامحه. رأى **شبل** بريقا غريبا يشع من عينيه. تقدم **أبو العجب** نحو الجدار وأشار بسبابته إلى الرسوم ثم قال كأنه يقرأ كلمات مكتوبة:

– أنا صاحب الاسمين. لي اسم منذ أن رأت عيني النور لا يعرفه أحد، إن هذا الاسم يسكنني، وأملكه ويمتلكني، هو أنا.

– هل تستطيع قراءة تلك الكتابات وفك طلاسم نقوشها؟

– من السهل كشف أسرارها لو أطلقنا لخيالنا العنان. هل تعرف ما جرى **لمقدام** وكيف انتهت حكايته؟

هزّ **شبل** رأسه نافيا علمه بنهايتها. فتابع **أبو العجب** كلامه:

– حكاية غريبة وعجيبة أليست كذلك؟ في العموم الحكايات لا تنتهي أبدا بل تتبدل وتتغير. هل تعرف أن **عجيب الزمان** قد صنع "شخيصة" تمثلك وأخرى تمثل **محمود الغريب**؟ وأننا قمنا بتأليف عرضٍ يروي تفاصيل لقائكما **بالعقالي** عندما ذهبتما إلى "الريانية".

استغرب **شبل** أنهما فعلا ذلك، فقال متحيرا:

– وهل يشير عرضكما الجديد إلى ما رواه لنا العمدة عن تفاصيل استباحة "الريانية" والفتك بأهلها؟

– أنا و**عجيب الزمان** لن نتوان عن تأليف الحكايات وتبديل الأحوال حتى ينجذب الناس إلى ما نحبكه من أحداث وخيالات. وفي كل مرة نبدل ونغير الوقائع بما يفيد عروضنا ويبقي الجمهور متشوقا لما نرويه.

ـ أليس هذا ما تتفاخرون به؟ أنت و**عجيب الزمان** وجميع الأعيار والأكادية من بني ساسان.

– تعجبني فراستك، فلقد بدأت تفهم ما أريد قوله.

خرج الاثنان من المغارة وجلسا على حافة صخرة تطل على الوادي المظلم. قال **أبو العجب**:

– **عجيب الزمان** هو سيد الأكادية بلا منافس. لن ينكر أي منا ذلك، لكنه كثيرا ما يتهور ويذكر أشياءً تغضب العُمد والأعيان ومن بيدهم مقاليد الحكم. لقد حذرته أكثر من مرة لكنه لا ينصت إلى.

– بالطبع لن ينصت إليك فأنت مجرد "الحازق" الذي يساعده في

تقديم عروضه. أنت لا تفعل شيئا سوى الدق على الدربُكة والتغني بالأزجال.

ردّ **أبو العجب** في غيظ:

– وأنت لست إلا مساعد **محمود الغريب**، وكل ما يطلبه منك هو دق الأوتاد وشد شريط القياس.

– أنا آسف لو كنت أغضبتك.

–ما يقلقني حقا هو إصراره على تقديم عروضنا "عمال على بطال" رغم علمه بأن من بقوا في هذه الناحية يكرهون ما يقوله عن الغارة، حتى أن بعض العُمد ورجال السلطة هنا يتربصون بنا.

– ألهذا السبب سُر **عجيب الزمان** كل هذا السرور بمجيئنا إلى "القاو"؟ لقد أسعده وجودنا لأنه أتاح له فرصة الحكي عن الغارة دون أن يثير غضب أحد. الآن فهمت لماذا يتعقبنا بعروضه من قرية إلى أخرى.

سكت **أبو العجب** وأطال النظر إلى الوادي الذي دُمرت قراه وتم تهجير أهاليها إلى "دمياط". قال في تجهم:

– لقد نفي **فاضل باشا** النساء والشيوخ والأطفال بعد أن خزوق وقتل الرجال جميعهم. هل تعلم أن **جنات** زوجة **عبد الرحمن مشهور** اختبأت هي وجدتها مع بقية نسوة **المشاهرة** في هذه المغارة.

أجابه **شبل**:

– أعلم أن **جنات** صعدت إلى مغارات الجبل مع جدتها **راضية** مع نساء **المشاهرة** أثناء الغارة لكني لا أعرف تفاصيل ما جري لهن.

أشار **أبو العجب** بسبابته إلى صدره وقال:

-لا أحد يعرف تفاصيل ما جرى مثلي. فبعد أن دك **فاضل باشا** "قاو الشرق" و"النواورة" بالمدافع هرب الناس إلى "الشيخ جابر" و"النطرة" و"ريانية أبو أحمد" في الشمال و"ريانية الهريدي" في الجنوب. الشيخ **الطيب** انسحب نحو سفح الجبل وقرر مواجهة **فاضل باشا** عند مستطيل الأرض الواقعة بين الدير والجبل. **المشاعلي** أسرع للقاء الشيخ هناك عارضا خدماته كما فعل من قبل. لكن تناقض الأوامر التي صدرت إلى أتباع الشيخ أدت إلى عدم تحصين المواقع الدفاعية بشكل مناسب وتسببت في تضارب الخطط القتالية. فتمركز أولاد **عمران** وأولاد **مشهور** بالقرب من الجبل بينما تُركت المواقع القريبة من سور الدير شاغرة. ما لم يتوقعه أحد كان التقدم السريع لعساكر **فاضل باشا** الذين انقسموا إلى قسمين، أحدهم وصل إلى الأطراف الجنوبية "للشيخ جابر" على طريق الجسر المار "بعزبة الأقباط" والثاني اتجه إلى "ريانية أبو أحمد" لقطع الطريق على **وثاب البختياري** وفي نفس الوقت للالتفاف حول "الشيخ جابر" لمهاجمتها من الشمال.

- أعرف أن **عثمان الأحدب** قام بتأمين الطريق الثالث المار بالقرب من عزبة "أولاد سالم"، وذلك بعد أن انقلب على الشيخ **الطيب** وانضم إلى صفوف الحكومة معلنا مساندته لقوات **فاضل باشا**.

- هذا التحول كان متوقعا من **عثمان الأحدب** فهو لم يبد تأييدا حقيقيا للشيخ **الطيب** في أي وقت من الأوقات. أما ما لم يخطر على بال أحد فهو تسليم **البختياري** "للريانية" بلا قتال مقابل أن يضمن له **عبد العال العقالي**

الحفاظ على أمواله وبيته وأراضيه. الروايات تحكي كيف أغلق على نفسه باب داره عندما كان أهل "كفر العقال" مع عساكر الحملة يستبيحون بيوت قريته ويفتكون بسكانها.

تساءل **شبل**:

– **عبد الرحمن مشهور** كان هناك، أليس كذلك؟

أجاب **أبو العجب** مستنكرا ما جرى **لعبد الرحمن**:

– هل تعرف أن **البختياري** استغفله عندما بعث به إلى "كفر العقال" مع **ناتو السوداني** بحجة البحث عن **مقدام**؟ ما لم يعرفه **عبد الرحمن** آنذاك هو أن الرسالة التي حملها **ناتو** إلى العمدة **عبد العال** كانت تتضمن شروط تسليم "الريانية". والسماح بعودة **ناتو** إلى "الريانية" كان رد **العقالي** بموافقته على شروط **البختياري**! لقد تم ذلك الاتفاق بينهما تحت سمع وبصر **عبد الرحمن** الذي لم يدر بما كان يجري حوله.

– و**مقدام** ماذا جرى له؟

أبو العجب أجاب في صوت شجي، كأنه يروي تفاصيل تجربة قاسية مر بها بنفسه:

– في وسط هذه المعمعة لم يكن **مقدام** مهتما بأي شيء سوى الثأر لأبيه ولم يحفل لمن ستكون الغلبة في ذلك اليوم الحزين. عندما بدأ الضرب تعقب **المشاعلي** وصعد وراءه نحو "الشيخ جابر" حيث توجه ذلك المجرم للقاء الشيخ **الطيب**. كان **المشاعلي** يتنقل بين ما لا يقل عن عشرة رجال من أشد رجالاته، مما صعب من مهمة **مقدام**.

– وبالطبع لا يمكن **لمقدام** أن يتعامل مع هذا العدد من رجال **المشاعلي** إلا لو كان يحمل معه سلاحا ناريا. لكن مجرد محاولة رفع سلاحه في اتجاه **المشاعلي** كانت ستقوده إلى الهلاك.

– لا تستعجل الأحداث، فالوصول السريع غير المتوقع لعساكر الحملة ونصب المدافع غربي "عزبة الأقباط" أربك الموقف. ضربت المدافع مواقع أنصار الشيخ قبل أن تنتظم صفوفهم وفي الوقت نفسه صبت حممها على "الشيخ جابر"، فهجر الكثيرون من المقاتلين مواقعهم وأسرعوا إلى بيوتهم ليطمئنوا على ذويهم، المساكين أرادوا ترتيب صعود نسائهم وعيالهم إلى الجبل للاختباء في مغاراته. اختلط هؤلاء مع الأعداد الكبيرة من الفارين من "قاو الشرق"، فساد الارتباك واختلط الحابل بالنابل، وازدادت صعوبة الموقف مع اشتداد قصف المدافع.

استمر **شبل السباعي** في تساؤلاته:

– هل تعني أن **مقدام** لم يستطع الوصول إلى **المشاعلي**؟

– عندما اشتد الضرب تشرذم أنصار الشيخ، وانفض رجال **المشاعلي** من حوله. انطلقوا في اتجاهات مختلفة باحثين عن ملاذات تحميهم من القنابل المنهمرة. **مقدام** لم تخفه الانفجارات وامتلأت نفسه بالرغبة في الانتقام من قاتل أبيه، فهانت عليه الدنيا وفقدت الحياة قيمتها.

– أتعني أنه لم يفقد الأمل رغم كل ما كان يدور حوله؟

أحس برعشة في صوت **أبي العجب** وهو يقول:

– الأمر كان أبسط مما تتصور، فعندما انحنى **المشاعلي** وحده خلف أحد

المتاريس ليحتمي من شظايا الانفجارات، انطلق **مقدام** نحوه غير هيّاب بينما كانت القنابل تنهمر فوق الرؤوس، وعندما وصل خلف **المشاعلي** توقف ورفع شومته ثم هوى بها فوق رأسه فصرعه.

صاح **شبل**:

– إذن حقق **مقدام** هدفه وثأر لأبيه و**لحسون**. فعلها بلا تعقيدات أو عقبات تذكر. كنت أتوقع أن يدور بين الغريمين عراك عات تحت وطأة قصف لا يرحم وانفجارات عنيفة تطيح بكل ما يحيط بهما. حكاية كهذه تحتاج إلى مواقف تمثيلية مليئة بالإثارة لكي تجذب المشاهدين وتؤجج المشاعر.

رفع **أبو العجب** كتفيه وعقب قائلا:

– **مقدام** قتل **المشاعلي** من أول ضربة. لكن ما جدوى الانتقام في يوم مُفجع كذلك اليوم؟

سكت **شبل** ولم يعلق. أما **أبو العجب** فلقد هب واقفا وهو يقول:

– فلنهبط إلى الوادي، سنجد **عجيب الزمان** بالقرب من ضريح "الشيخ جابر"، وبالطبع سيسعد لرؤيتك، وربما قدم لك عرضه الأخير الذي يتناول أحداث الغارة وكيف قمع **فاضل باشا** التمرد.

– هل سيعرضه لي وحدي؟

– لا لن تكون وحدك. في كثير من الأحيان يحضر عدد من أهالي القرى القريبة. هؤلاء يحرصون على مشاهدة عروضنا في السر، ويفعلون ذلك لأنهم يستنكرون الأفعال الشنيعة التي ارتكبها **فاضل باشا** ويكرهون الظلم

الذي لحق بسكان القرى التي ثارت ضد الحكومة. رغم بغضهم الشديد للأوضاع الحالية إلا أنهم لا يعلنون آراءهم ولا يجهرون بما يضمرونه. هؤلاء المساكين يكتفون بالفرجة على عروض **عجيب الزمان** سيد الأكادية والذعار والأعيار.

***

أبو الوحوش

ثَبَّت **عجيب الزمان** شاشة العرض بين جدار الضريح وشجرة قريبة. أضاء مصباحه وأخرج شخوصه من جرابه وبدأ يصف أحداث الغارة والتقدم السريع **لفاضل باشا** الذي سبقه قصف عنيف لمدافعه. أفاض "المخايل" في تصوير ذلك الهجوم الصاعق الذي أربك أنصار الشيخ **الطيب** فتشرذموا وتخلخلت دفاعاتهم. وحكى أيضا عما فعله **مقدام** حين تعقب **المشاعلي** ثم استغل فرصة القصف العنيف فاستفرد به وصرعه بضربة قاصمة، ثم أكمل موضحا أن **مقدام** أعاد الضربة مرة أخرى لكي يتأكد من موت غريمه وقاتل أبيه، وفي اللحظة التي انهال فيها بعصاه ثانية على رأس **المشاعلي** لمح شخصا واقفا وراء ظهره. استدار ليواجهه، فوجد الحاج

أحمد مشهور الذي تقدم نحوه واحتضنه ثم غمغم:

– لقد أخذت بثأرك يا **جساس!** الآن تعال معي لتحتمي وسط من تبقى من **المشاهرة** وراء تلك الصخرة.

أشار **أحمد مشهور** بيده إلى الجبل وتابع كلامه:

– انظر إلى أعلى! **المناديلي وزغبر الكلبي** تسلقا الدرج الصاعد إلى مغارات الجبل مع رجال **المشاعلي** لكي يقوسوا ببنادقهم على العساكر المتقدمين نحونا. للأسف لم يتمكن أحد من التمركز بالقرب من سور الدير، لكننا سنحتمي بصخور الجبل حتى نجذب العساكر إلينا فنخوض قتالا متلاحما يسمح لنا بالعراك عن قرب والنيل منهم بفؤوسنا وعصينا.

هدأ القصف قليلا فسأله **أحمد مشهور** عن ابنه **عبد الرحمن** وإن كان قد حضر معه من "الريانية" أم أنه لا يزال هناك. أجابه **مقدام**:

– كان ما زال هناك عندما جئت إلى "عزبة الأقباط" منذ عدة أيام. هل لديك أخبار عن الأوضاع هناك؟ أنا مدين لابنك بحياتي.

أجابه **أحمد مشهور** في كمد:

– يقال إن **البختياري** سلم القرية **لعبد العال العقالي** دون قتال. ولا أدري ما مصير ابني.

ما لم يعلمه **أحمد مشهور** هو أن ابنه عرف من عمال **البختياري** بأن داره ستكون آمنة عندما يسلم قريته **لفاضل باشا** أو **للعقالي**. فزع **عبد الرحمن** للخبر فتسلل من المنضرة وأسرع إلى "الشيخ جابر" عن طريق سكة الجبل، وقبل أن يصل إلى هناك بدأت المدافع تدك بيوت القرية بقنابلها ووصل

إلى سمعه أصوات الانفجارات. أسرع الخطى لكي يدرك داره ويشارك في دفع ذلك البلاء عن أهل بيته.

في نفس تلك اللحظات كان **مقدام** و**أحمد مشهور**، المتمركزان عند سفح الجبل، يراقبان صفوف عساكر **فاضل باشا** التي اخترقت شوارع "عزبة الأقباط". ظهر لهم الجنود ببزاتهم البيضاء وطرابيشهم الحمراء، كانوا يتقدمون بسرعة نحو مواقع الثوار وهم منتظمون في طوابير لا أول لها ولا آخر. آلاف من العساكر المدربين جيدا، الذين مهد القصف المدفعي لهم الطريق. زادت خطورة الموقف عندما عبرت قوات **فاضل باشا** القنطرة الممتدة فوق ترعة "القاو" وأصبحوا قريبين من التحصينات التي تهلهلت نتيجة للقصب المستمر. اضطربت صفوف الفلاحين وتعالت نداءاتهم في محاولات يائسة لتنظيم دفعاتهم. **المشاعلي** لقى حتفه ونوابه صعدوا أعلى الجبل تاركين خلفهم أتباع الشيخ ودراويشه بفؤوسهم وعصيهم ليواجهوا رصاصات هذه القوة المدربة شديدة البأس. أما الشيخ **الطيب** فاختفى ولم يعرف أحد مكانه. ردد أتباعه أن طيفه النوراني مرق بينهم دون أن يراه أحد، وأنه صعد إلى المغارة القبلية منتظرا وصول جنود العدو إلى سفح الجبل حتى يهبط عليهم ليفتك بهم وهو ممتطي صهوة البراق ومنتضي سيف القدرة.

اضطربت صفوف الفلاحين وظهر الجزع عليهم، وفي وسط هذه الفوضى وصلت إلى أسماعهم أصوات الصلوات القادمة من الدير وصيحات الاستغاثة بالرب. زاد صخب مئات الأهالي من المسلمين والأقباط الذين احتموا

بالدير، وكلما اشتد القصف تعالت ترانيمهم وابتهالاتهم. وقف **مقدام** بين **المشاهرة** خلف أحد المتاريس التي شيّدها بيديه منذ أسابيع قليلة. **أولاد دويب** و**أولاد عمران** تمركزوا في المواقع الموجودة خلفهم مباشرة. العساكر المتقدمين نحوهم توقفوا على مسافة أبعد من مدى بنادق **المناديلي** ورفاقه. **أحمد مشهور** صوب نيران قربينته عليهم فردوا عليه بوابل من الرصاص. أدرك **مقدام** أن وضعهم اختلف كثيرا عن يوم انتصارهم على حاكم "جرجا". فلا أحد منهم قد تمركز بالقرب من سور الدير، مما سمح للجنود بالتقدم من ذلك الاتجاه ثم الالتفاف حولهم من ناحية الشرق، فقطعوا بذلك طريق انسحابهم نحو الصحراء. ولم يبق هناك طريقا للتراجع سوى تسلق الجبل مما سيكشف ظهورهم لنيران العساكر وسيضعهم في مرمى رصاصات العدو. لقد تم حصارهم ولا سبيل للخروج من هذا المأزق. **أحمد مشهور** أسند يده على كتف **مقدام** وأكد له أن بقية أهالي "الشيخ جابر" و"النطرة"، مع من سينضم إليهم من ثوار "قاو الشرق" و"النواورة"، سيسارعون بإنقاذهم من هذا الوضع البائس وتخليصهم من الحصار المضروب حولهم.

مقدام طأطأ رأسه وأحكم قبضته على عصاه. لقد اتضح له في تلك اللحظة أنه جاء إلى "الشيخ جابر" ليُدفن مع أهله من **المشاهرة**. لا مفر له من هذا المصير، ولكن رغم الوضع المتردي لم يرغب **مقدام** في الفرار ولم يفكر في الهرب. شرد ذهنه إلى حال أمه وما ستظنه به، وكيف سيحزنها

خبر موته، واغتم عندما تخيل أنها لن تعرف شيئا عما فعله ابنها الذي ثأر لأبيه وقتل **المشاعلي**.

العساكر توقفوا عن التقدم واستكفوا بإطلاق نيران بنادقهم كلما ظهر لهم أحد الفلاحين من وراء ساتر أو من خلف صخرة. أزيز الرصاص كان يدوي فوق الرؤوس، وامتزج مع أنين من أصيبوا من **أولاد مشهور**. عندما سمع **مقدام** أصوات طلقات البنادق قادمة من ناحية المغارات القبلية أدرك أن العساكر قد صعدوا الجبل واشتبكوا مع رجال **المناديلي** و**زغبر الكلبي**.

لقد أحكموا الحصار حول مواقعهم وأصبح الاستسلام هو الحل الوحيد لهذا الموقف المستحيل. تشاور **أولاد مشهور** في الأمر فكان الكثيرون منهم يعارضون الاستسلام ويبدون استعدادهم للقتال حتى النهاية، لكن آخرين أصروا على التسليم خوفا على حياتهم ولاقتناعهم بعدم جدوى القتال لأن الشيخ اختفى و**المشاعلي** قتل ولا أحد يعلم مصير **مداح المناديلي** و**زغبر الكلبي**. بعد قليل خرج **أولاد عمران** من خلف سواترهم رافعين أيديهم، فانضم إليهم **أولاد مشهور** وانتهت المعركة.

سدد العساكر بنادقهم نحو صدور الفلاحين الذين ألقوا فؤوسهم وعصيهم على الأرض وسلموا قربيناتهم وبنادقيهم. تقدم أحد الضباط في اتجاههم وأمرهم في صوت خشن بالانبطاح على الأرض، ثم أشار لجنوده بتقييد أيديهم خلف ظهورهم. بعد ذلك أوقفوهم وربطوا أعناقهم بحبل غليظ وقادوهم في طابور طويل نحو ضريح "الشيخ جابر". عندما

توقف إطلاق الرصاص خرجت النسوة المتشحات بالسواد من المغارات البحرية وأطللن من أعلى الجبل. عندما رأين الرجال مقيدين بالحبال انتحبن وأطلقن صيحات العديد:

- ***خايفة يابويا من وراك نتهان/ خايفة يا أخويا من وراك نتعب.***

وعلت أصواتهن بالنواح والعويل. وردد الجبل أصداء عديدهن. يذهبن ويجئن بلا نفع أو هدف، فلقد حارت بهن أقدامهن وهن يرددن:

- ***خايفة يابويا من وراك نتضر/ خايفة يا أخويا من وراك نتأذى.***

بعد قليل أحاط بهن عساكر القوة التي طاردت **المناديلي** ومن معه. ودفعوهن مع أطفالهن والعجائز إلى داخل المغارات. بعد العصر وصلت أورطة من الجنود من ناحية "الريانية" ومعهم من أسروهم من الثوار الذين حاولوا الفرار نحو الشمال.

حضر إلى الضريح **فاضل باشا** بنفسه وسط حشد من قواده ومعهم عُمد ومشايخ البلاد الذين هربوا من قراهم مع بداية أحداث الثورة. تفحص **فاضل باشا** صفوف الأسرى ثم طلب من العُمد تمييز زعماء التمرد لكي يفصلهم عن بقية العاصين. في الوقت نفسه اقتحم العساكر الدير وجلبوا كل من اختبأ هناك إلى المدافن التي تحيط بضريح "الشيخ جابر". ومن ثمة نشط العُمد ومشايخ البلاد في انتقاء المتمردين من بينهم وتحديد هويتهم والقرى التي ينتمون إليها.

نادى **فاضل باشا** على **أبي الوحوش** اليوزباشي المسئول عن تنفيذ أحكام الإعدام وأمره بنصب الخوازيق. في الوقت ذاته رفع العساكر صيوان

كبير من القماش الأحمر ليستريح بداخله **فاضل باشا** وقواده، بينما نشط **أبو الوحوش** ورجاله في رفع الخوازيق المصنوعة من أخشاب الجميز أمام الصيوان المخملي.

حبس العساكر زعماء التمرد داخل مبنى الضريح، وطرحوا مئات الفلاحين أرضا على وجوههم بعد أن أوثقوا أقدامهم وقيدوا أيديهم بالحبال خلف ظهورهم. هؤلاء المساكين رقدوا بين شواهد القبور وفساقيها منتظرين مصيرهم التعس. بعد قليل جيء **بالمناديلي وزغبر الكلبي** مكبلين بالحديد وزُج بهما الضريح مع رفاقهما من زعماء التمرد. **مقدام** المرمي مع الفلاحين بين الفساقي والقبور سمع صوت **أبي الوحوش** وهو يتهدد ويتوعد المحبوسين ويسألهم عن مكان الشيخ **الطيب** وعن **المشاعلي**. بعد قليل بدأت أصوات الضرب بالسياط تصل إلى أسماعه وتعالى صياح المحتجزين في مبنى الضريح ومن ضمنهم **أحمد مشهور**، شعر **مقدام** بغصة في حلقه لما يفعلونه بذلك الرجل الشهم النبيل. فلاح من "النطرة" ملقي بالقرب من **مقدام** أخبره أن **عبد الكريم مشهور** وابنه **مصطفى** قد قتلا عندما أصابت قنبلة دار العمدة. وأضاف في نبرة نادمة أن أهالي القرى الثائرة قد أخطأوا بعدم الهرب إلى الصحراء حين كانت الفرصة متاحة. سأله **مقدام** عن مصير **عبد الرحمن** فقال إنه التقى به عندما وصل قرب "النطرة" مع بداية ضرب المدافع. **عبد الرحمن** روى له تفاصيل ما جرى في "الريانية" وأسرع بعد ذلك إلى ديار **المشاهرة**، حيث أمره جده العمدة بأن يأخذ نساء العائلة والأطفال إلى المغارات البحرية أعلى الجبل. شعر **مقدام** بارتياح غريب لمجرد التفكير في احتمال نجاة

عبد الرحمن ومعه **جنات** وكل نساء العائلة وأطفالها.

قضوا ليلتهم بين القبور في الطل تحت زخات من المطر البارد. العساكر أحاطوا بهم من كل جانب. تفكر **مقدام** في أمه ومدى الألم الذي سيسببه لها مقتله. كم ود في تلك اللحظة أن تعرف أنه قتل **المشاعلي** وثأر لأبيه. حتى ذلك الخبر لن ينقله إليها أحد ولن يخفف ذلك النبأ من أحزانها. تقدم الليل وفي ضوء القمر الباهت تخفف ذهنه من أهوال اليوم السابق. تلفت حوله وتأمل المكان فأدرك أنه يرقد بجوار مقبرة جدته **بدرية**. نفس المقبرة التي نامت **جنات** بداخلها منذ أسابيع قليلة. زحف نحو مدخلها وحدق في الملاط الخفيف الذي ثبت به اللحاد غطاء الفتحة الضيقة للمقبرة. ضغط بكتفه على الغطاء الحجري فتفكك الملاط وهوى بجواره. زحف فوق الحجارة وتدحرج على التراب حتى استقر بجوار رفات جدته **بدرية** الملفوفة في كفنها المتآكل. قربه منها أشعره براحة غريبة ورأى في ظلمة القبر كف **سيدي الفرغل** تمسح جبهته فنام.

***

ضرب "الحازق" الدربُكة بإيقاع جنائزي بطيء، كأنه يمهد لحدث مروع. ففي صباح اليوم التالي وصل **العقالي** و**البختياري** ومعهم أورطة من العساكر تقود مئات الأسرى الذين تم القبض عليهم في "الريانية" بعد أن استباح أهالي "كفر العقال" بيوتهم وأموالهم. أمسك "الحازق" ببوق

نحاسي ونفخ فيه معلنا قدوم **فاضل باشا وإسماعيل باشا أبو جبل** وغيرهما من القادة التي أظهرت منمنمات شخوص خيال الظل زينتهم وما علقوه على صدورهم من نياشين.

في الساعات الأولى من الصباح اتخذ قادة الحملة أماكنهم في الصيوان أمام الخوازيق المنصوبة. اصطف خلفهم العمد ومشايخ البلاد الذين دعموا الحكومة فكان من بينهم **عثمان الأحدب** و**همام بك** و**عبد العال العقالي** و**وثاب البختياري** وكثيرون غيرهم. ارتفعت هاماتهم وانتفخت صدورهم بسبب شعورهم بالفخر، ولفتاتهم المزهوة عبرت عن اعتزازهم بالنصر الذي أحرزوه.

انطلق النفير معلنا بدء تنفيذ عقوبات الإعدام التي أقرها **فاضل باشا**. وقف **أبو الوحوش** منتصبا أمام قادته ثم أفاد بانتهاء مهمة القوة التي أرسلها دولة الخديوي بعد نجاحها في تأديب العصاة وتحطيم مقاومة المتمردين من أتباع الشيخ **أحمد الطيب**، وقد تم بذلك إعادة الاستقرار والنظام إلى البر الشرقي كله. ثم أعلن **أبو الوحوش** أعداد القتلى من القرى الثائرة والذين بلغوا أكثر من مائتي رجل غير الذين دفنوا تحت أنقاض المباني المهدمة، وأعلن في فخر أن الشيخ **الطيب** قد قُتل لكنهم لم يتعرفوا على جثمانه بعد، وأن بقية زعماء التمرد قد قُبض عليهم وهم محتجزون في مبنى الضريح.

أنزل العساكر النساء والشيوخ والأطفال من المغارات وجمعوهم في ركن قصي من الجبانة ليشاهدوا تنفيذ أحكام الإعدام. هناك أحاط الجنود بمربع كبير من النسوة المتشحات بالسواد ومعهم القليل من الشيوخ والعجائز.

زعق **أبو الوحوش** مناديا على أسماء قادة التمرد فأحضرهم العساكر الواحد بعد الآخر ورفعوهم فوق الخوازيق. تعالت الآهات من حين لآخر لكن على غير المتوقع امتنعت النساء عن الولولة والنواح، وساد صمت رهيب بينهن.

عبد الرحمن الذي كان مختبئا وراء صخرة قريبة، ولم يصدق عينيه عندما رأى **عبد العال العقالي** واقفا خلف **فاضل باشا** بينما كان أبوه مكبلا بالحديد منتظرا دوره في طابور الإعدام. فلما نادى **أبو الوحوش** على **أحمد مشهور** ورأى **عبد الرحمن** العساكر يهمون برفعه على الخازوق لم يهن عليه أباه، فهبط من الجبل واقترب من الصيوان. أحاط به العساكر وصوبوا بنادقهم إلى صدره، لكنه طلب التحدث إلى **فاضل باشا** الذي أذن له، فتقدم نحوه وتوسل إليه طالبا منه ألا يحمله عذاب رؤية أبيه التقي النبيل يُقتل أمام عينيه. وقال له:

– لقد كنت ناجيا فعدت لأفدى بحياتي من منحني الحياة.

أعجب **فاضل باشا** بشجاعته ووافق على أن يرفعه على الخازوق قبل أبيه، ولكنه لم يقبل الفداء. فلما همّ بأن يرفع **عبد الرحمن** على الخازوق خاطبه **أحمد مشهور** والدمع يبلل لحيته البيضاء قائلا:

– يا سيدى لا تحملني عذاب رؤية ابني يموت قبلي فكأنك تقتلني مرتين. وإني لأعدك، وأنا شيخ تقي، بأنني إن سبقت ولدي إلى جوار ربي سأدعوه ألا يريك مكروها في ذريتك.

كان **فاضل باشا** يقتل الشباب من الأسرى قبل الشيوخ لأنه اعتقد

أن الشباب أشد خطرا فلم يستمع لرجاء الأب وأمر بقتل الابن أولا. فلما مات **عبد الرحمن** أمام عيني أبيه انتزع **أبو الوحوش** أحشاءه ورفع **أحمد مشهور** على الخازوق ذاته الذي فري أحشاء ولده.

بعد أن انتهى من إعدام قادة التمرد أحضر **أبو الوحوش** الفلاحين، وتحت تهديد البنادق أمر كل رجل منهم بأن يقطع رأس أخيه بفأسه، وبذلك قتل مئات الأسرى. أما النسوة فلم تصدر منهن صرخة أو يعلو لهن نواح، وكأنهن تعاهدن على الأخذ بثأر من مات من أقاربهن.

قبل أن يرحل **فاضل باشا** و**إسماعيل باشا أبو جبل** صافحا كل العُمد الذين ساندوا الحكومة وأشادا بمواقفهم الشجاعة. ويقال إن كل ذلك وقع بينما كان الشيخ **أحمد الطيب** يشهد المجزرة وهو مختبئ بالقرب من مغارة "المساخيط" البحرية. وبعد الانتهاء من تنفيذ أحكام الإعدام مرق طيفه بين الجنود المرابطين حول الصيوان. فلم تره عيونهم، وأثناء مروره أعلن الشيخ فيمن بقي حيا من الأهالي بأنه سيعود. وإنه سيرجع لكي يقيم العدل ولو بعد ألف عام.

***

عواد الشرماط

أجمل ما في عروض الخيال هو أن "المخايل" الماهر يمكنه أن يبدل شخوصه دون أن تختل الحكاية. يستطيع فعل ذلك أثناء دق "الحازق" على الدربُكة وتغنيه بالأزجال. وغالبا ما يقوم "المخايل" الناصح بعملية التبديل وسط انذهال المشاهدين بالأضواء والظلال فلا يلاحظ أحد منهم انعكاس الأدوار.

رجع **شبل السباعي** بعد ثمانية أشهر للقيام بأعمال إضافية طلبها مدير مصلحة الأشغال العامة الذي أراد منه العودة إلى القرى المنكوبة لكي يقوم بفصل مساحات الجبانات عن كشوف التحديد باعتبارها مناطق مخصصة للمنفعة العامة وتقع نتيجة لذلك خارج زمام القرى والبلدات.

كان **محمود الغريب** قد استقال من المصلحة بعد رجوعه من الصعيد ولم يعد أحد يعرف مكانه، فلم يجد مدير المصلحة إلا **شبل السباعي** للقيام بهذه المهمة.

عندما رست الباخرة في "أسيوط" ترك **شبل السباعي** حقائبه في لوكاندة قريبة من شط النيل ونزل إلى الشارع وفي نيته زيارة بيت **عواد الشرماط** كما فعل في أول رحلة له. في الطريق إلى هناك التقى صدفة **بأبي العجب**. رآه يمشي في الشارع ممسكا بجراب في يده، ناداه لكن **أبا العجب** أدار وجهه وأسرع بالابتعاد عن طريقه. انطلق **شبل** نحوه واقترب منه ثم قال في تودد:

– يا **أبا العجب**، هل تذكرني؟

التفت **أبو العجب** نحوه وأطال النظر إليه، ثم ابتسم وقال:

– بالطبع أذكرك! أنت **شبل السباعي** أليس كذلك؟

ثم قهقه بصوت عال وأضاف:

– لقد عدت إلينا ولم تحتمل البعد عنا. أنا أعرف أن للحكاية سحرها الفتان، لكني في الوقت نفسه واثق من أن شغفك بالحكاية ليس هو السبب الذي أتى بك من "القاهرة" إلى "أسيوط".

أجاب **شبل** في هدوء:

– لقد عدت لكي أستكمل أعمال المساحة التي بدأتها مع **محمود الغريب**.

– وهل جاء صاحبك معك؟

هز **شبل** رأسه بالنفي وصارحه بأن **محمود الغريب** غادر "القاهرة" بعد رجوعه من الصعيد ولم يعرف أحد مكانه منذ ذلك الوقت. ثم سأل **أبا العجب** عن **عجيب الزمان** وأحواله، فأطرق وظهرت عليه علامات الأسى. ارتجف صوت **أبي العجب** عندما أخبر **شبل السباعي** أن "المخايل" قد أغتيل على يد جماعة من أتباع **عثمان الأحدب**. ففي يوم حزين أحاط به عدد من "بلطجية" عزبة "أولاد سالم" وانهالوا على رأسه بالشوم حتى فارق الحياة. مسح وجهه بكفه ثم أضاف في نبرة حزينة:

– ملعون هو البلد الذي يغتال أبناءه من الأعيار والذعار. لقد كان **عجيب الزمان** ذا فضل عظيم.

مقتل **عجيب الزمان** صدم **شبل السباعي** الذي علق في اندهاش:

– لا يمكنني تصديق ما تقوله! لماذا يغتال رجال **عثمان الأحدب** "مخايل" لا حول له ولا قوة **كعجيب الزمان**؟

– كثيرا ما نصحت **عجيب الزمان** لكنه لم يستمع لي. ذلك المسكين لم يخش أي شيء ولم يتوقف عن التعبير عن أفكاره بلا خوف.

– وبماذا أفادته عروضه عن الغارة؟

– كان يقول إنها تحفز الهمم.

– تحفز الهمم! ذلك الواهم، ألم ينصحنا بأن الخرس هو لسان الفرج.

استطرد **أبو العجب**:

– في كثير من الأحيان كان يفعل عكس ما يقوله. لكن لا يمكن لأحد إنكار أن الحكاية تشحذ الخيال وتؤجج النفوس وتحرك الأماني.

– لم أعد أفهمك! تدّعي أنك أسديت له النصح، مع ذلك تعتقد أنت أيضا أن الحكاية تشحذ الخيال وتثير النفوس. قل لي ما جدوى هذا الكلام؟ فالحكاية لم تحقق شيئا مما تحكيه تفاصيلها، بل إنها أدت إلى مصرع **عجيب الزمان**.

ساد الصمت بينهما، أراد **شبل السباعي** أن يترك **أبا العجب** ويذهب لحاله، لكنه شعر برباط عجيب يشده إليه، خاصة أن هناك الكثير من التفاصيل التي رغب في معرفتها. غلبه الفضول فاستطرد قائلا:

– ذكرت إنه ذو فضل عظيم.

هز **أبو العجب** رأسه وقال:

– أنا مدين له بحياتي، لذلك سأفضي لك بسر دفين. كنت قد رقدت في قبر ستي **بدرية** لمدة ثلاثة أيام عندما مر **عجيب الزمان** بالقرب من المكان الذي نصب فيه **فاضل باشا** الخوازيق. بقايا الجثث التي نهشتها الطيور الجارحة والذئاب كانت تملأ الموقع والهواء تشبع بنتانة لا تُحتمل. بعد انصراف العساكر حاولت الخروج من فتحة القبر لكنني لم أستطع بسبب القيود التي كبلت يديّ وقدميّ، سمعت أيضا أصوات الذئاب وهي تنهش الجثث الملقاة في العراء فقررت البقاء داخل المقبرة. بعد ثلاثة أيام بلغ التعب بي مبلغه وأرهقني العطش إرهاقا شديدا فشعرت بالحياة تنسحب مني واعتقدت أنني ميت لا محالة. وفي أشد اللحظات قنوطا تمثل لي **سيدي الفرغل** كطيف نوراني مسح بكفه على جبهتي فعرفت أنني سأنجو، بعدها سمعت وقع خطوات خارج المقبرة، زعقت بعلو حسي،

فأطل **عجيب الزمان** برأسه من الفتحة. عندما أدرك أنني على قيد الحياة قفز داخل المقبرة وحررني من قيودي ثم أخرجني منها.

– ما هذا الهراء! لا أفهم لماذا تريد استغفالي. الحكاية تقول إن **مقدام** هو الذي اختبأ في قبر جدته **بدرية** قبل أن يعدموه.

اندهش **أبو العجب** من ردة فعل **شبل السباعي**، لكنه قال في صوت مازح وكأنه يشرح أمرا بديهيا:

– لا يوجد فرق بين **مقدام** و**أبي العجب**. الأسماء تتبدل أحيانا لكن الحقيقة واحدة.

تحير **شبل** قليلا ثم استجمع شجاعته وسأله صراحةً:

– هل تعني أنك أنت و**مقدام** شخص واحد؟

– بعد أن أنقذني **عجيب الزمان** رويت له تفاصيل الغارة وما جرى للشيخ **الطيب** وما ارتكبه **فاضل باشا** من فظائع، وفي نفس الوقت علمني هو ألاعيب وحيل الأكادية والأعيار، وأفهمني أحابيلهم وأسرار لغوهم.

– إذن أنت لست أصلا من بني ساسان كما تدعي.

– **عجيب الزمان** سحرته الحكاية فصنع لي "شخيصة" وأضافني لعروضه عن الغارة والشيخ **الطيب** وما جرى **لمقدام المواسي** مع **حماد المشاعلي**. رافقته حتى توطدت علاقتنا فطلب مني معاونته في تقديم عروض الخيال. أعجبتني الفكرة فأطلقت لحيتي وأرسلت شعري وبدلت اسمي. وبدأنا نتنقل من قرية إلى أخرى لكي نحكي للناس سيرة الشيخ **أحمد الطيب** ونِقْمَة **فاضل باشا** على أهل "قاو الكبرى" والقرى الثائرة. الغريب أن

عجيب الزمان صمم على نشر الحكاية بين الناس حرصا على بقاء سيرة الغارة، فكانت فيها نهايته.

تساءل **شبل السباعي**:

– وهل يعلم أهلك في "التناغة" أنك ما زلت على قيد الحياة؟

– بالطبع! زرت أمي لكي تتأكد من أنني لا زلت حيًا أرزق، سألتني عن **حماد المشاعلي** فقلت أنه مات أثناء الغارة.

– ولماذا لم تبق في "التناغة" معها ومع أخوالك؟

– كيف أبقى هناك بعد أن قلبت أهوال الغارة كياني؟ علمتني حكايات **عجيب الزمان** أن هناك اعتبارات في هذه الدنيا لا يمكن إهمالها، وأن هناك أمنيات يجب أن نجتهد لكي تتحقق. مع **عجيب الزمان** شعرت أن "التناغة" لم تعد تناسبني، فالعالم اتسع أمامي ولم يعد متمحورا حول ذاتي ورغباتي.

– **وجنات؟**

– لقد أبعدها **فاضل باشا** إلى "دمياط" مع من نفاهم من الأهالي. لكن ما زال الأمل يحدوني في لقائها مرة ثانية، ولذلك أعاود الرجوع إلى "قاو الكبرى" والقرى المحيطة كلما استطعت ذلك.

– لكن ماذا تفعل هنا في "أسيوط"؟

– بعد مقتل **عجيب الزمان**، ابتعدت عن "القاو" واشتغلت كحاكي للربابة. ألف على القرى وأروي أحداث الغارة لزبائن المقاهي. هل تعلم أن القرى المنكوبة قد تبدلت أسماءها؟ "فالريانية" قد كُفلت **للعقالي** فأسماها

"العقال قبلي"، بينما كُفلت "قاو الشرق" **لعثمان الأحدب** وتغير اسمها إلى "العتمانية"، وكُفلت قريتي "النطرة" و"الشيخ جابر" **لهمام بك** فأطلق عليهما "الهمامية".

هز **شبل** رأسه متعجبا مما جرى وعلق قائلا:

– دوام الحال من المحال، وما دائم إلا وجه الله.

حدق **أبو العجب** في عيني **شبل السباعي** وسأله عن وجهته، لكنه لم ينتظر إجابته بل تابع كلامه في نبرة مرحة:

– أريد دعوتك لكي تصحبني، لكني أعرف أنك ذاهب إلى بيت **عواد الشرماط** لكي تبعزق نصف ما تملك على نسوانه.

– وكيف عرفت بوجهتي وبما أنوي عمله!

– أنا أعلم بكل ما تخفيه وما تخاف أن تفصح عنه من أسرار. هل نسيت أنني صنعت لك "شخيصة" كنت أستخدمها في عروض الخيال وأجري كلامك على لسانها؟

تعجب **شبل** مما قاله **أبو العجب** فمد يده مصافحا وهو يقول:

– لقد أسعدتني حقا رؤيتك، دعني أذهب لحالي.

ربت **أبو العجب** كتفه وأجابه في مودة:

– بعد لقائنا هذا لن يمكنك الذهاب بعيدا. سأعرض عليك أمرا لن تستطيع رفضه. سيبك من **عواد الشرماط**، وسُك كذلك على أعمال مصلحة المساحة، وابق معي.

– يبدو أنك تهذي! أعطني سببا واحدا لكي أفعل ما تطلبه مني.

– تعال معي، سنذهب إلى مقهى قريب، وهناك ستجلس بجواري وستستمع إلى أزجالي وأشعاري. لو أعجبك الحال يمكننا أن نذهب غدا إلى "بوتيج"، يُقام في هذه الأيام مولد **سيدي الفرغل** "سلطان الصعيد"، والمقاهي هناك سنجدها مزدحمة بالزبائن والرزق سيكون وفيرا. لو رافقتني ستعجبك أزجالي، وستتشرب مني الصنعة، ويا عالم؟ صدقني لن تندم!

امتثل **شبل السباعي** لرجاء **أبي العجب**. سار معه حتى وصلا إلى مقهى صغير يقع في حارة ضيقة. تقدم **أبو العجب** نحو دكة خشبية عريضة خصصت لجلوسه في صدر المقهى، وطلب من **شبل** أن يبقى بجواره. أخرج الربابة من جرابه وبدأ يعزف عليها فتحلق الناس حوله. حرك **أبو العجب** أصابعه على وتر الربابة فانبعثت منها نغمات أخاذة. وزع نظراته على المحيطين به من الزبائن، ثم أنشد في صوت شجي:

يا خسارة كان لي خي ولد أبويا شقيق
يتغدا بخروف ويفطر دهان ع الريق
قعد أربعين يوم ساددلوحده طريق..
لحد ما تكسر السيف وخلصت المزاريق
فاضل عدو جاب ألف رجالة..
اتروع الجدع حطوه على الخوازيق
تحرم على النسا لحد ما آخد تاره..
وأشرب من دم فاضل باشا بريق

***

تنـويـه

لمزيد من المعلومات عن ثورة الشيخ **أحمد الطيب** في "قاو الكبرى" 1865 يمكن الرجوع إلى "الخطط التوفيقية" لـ علي مبارك. و"امبراطوريات متخيلة: تاريخ الثورة في صعيد مصر" لـ د. زينب أبو المجد. و"مذكرات قرية" لـ د. عصمت سيف الدولة. هناك تفاصيل أخرى يمكن الإطلاع عليها في مراسلات بعض المسافرين الأوروبيين ورجال البعثات البروتستانتية الموجودين في الصعيد خلال تلك الفترة. وذلك بالإضافة إلى مجموعة مقالات علمية منشورة من قبل د. مارتينا ريكر الأستاذة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

يجب التنويه أيضا إلى أن أسماء الكثير من الشخصيات، وخاصة تلك التي استخدمت كعناوين لفصول الرواية، مأخوذة من بابة "عجيب وغريب" لابن دانيال (مولود سنة 1238) وهي إحدى النصوص الهزلية التي كانت تستخدم في عروض خيال الظل حتى بدايات القرن العشرين، كما يجب الإشارة إلى أن الأبيات التي يتغنى بها "المخايل" مأخوذة من نفس تلك البابة. أما الأبيات التي ألقاها الشيخ **الطيب** يوم الغارة فمن قصيدته "عزيز سقاني". وأخيرا فإن الأبيات التي يتغنى بها حاكي الربابة مأخوذة من "مذكرات قرية".

المؤلف في سطور

عمرو شعراوي

- يعمل أستاذا للفيزياء بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- أكمل دراسته بجامعة القاهرة في عام 1978 حيث حصل على البكالوريوس في الهندسة الكهربية وأعقب ذلك حصوله على بكالوريوس الفيزياء في عام 1980 من نفس الجامعة.
- بعد حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة فرجينيا تك (Virginia Tech)، بدأ مسيرته الأكاديمية في عام 1989 كعضو هيئة تدريس بكلية الهندسة، جامعة القاهرة.
- بعد عشر سنوات انتقل للعمل بالجامعة الأمريكية، قسم الفيزياء.
- له العديد من المقالات المنشورة بالدوريات العلمية المتخصصة وكذلك الأبحاث التي تم تقديمها في مؤتمرات دولية.

صدر له:

- رواية "طوكر: حكاية مائة وألف قمر" عن دار العين، 2016، وحصلت في نفس العام على جائزة "مجمع اللغة العربية" كأفضل رواية تاريخية.

البريد الإلكتروني:

shaarawi@aucegypt.edu